TAG-811-34/02

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

جامعة بوبكر بلقايد * تلمسان*
كلية الآداب و اللغات
مكتبة اللغة و الأدب العربي

جامعة تلمسان

معهد اللغة و الأدب العربي

رسالة مقدمة لمعهد اللغة و الأدب العربي
للحصول على درجة (الماجستير)

سجل تحت رقم: 1024
تاريخ: 2012
رقم:

موضوع البحث

الطبيعة في شعر أبي القاسم الشابي

(قراءة في ديوان "أغاني الحياة")

إعداد :

بنعلى قريش

تحت إشراف :

الدكتور شايف عكاشة

جمادي الثانية 1416هـ - نوفمبر 1995م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء ...

إلى روح أبي

وإلى أمـــي

وزوجتي

وإلى أخويّ : أحمد، ومحمد

وأختيّ : فاطمة، ونعيمة

وإلى الصغرتـين : سـارة ، ورجاء

المقدمة

منذ خلق اللّه السموات والأرض والطبيعةُ تحظى بنصيب وافر من العناية، والإعجاب من لَدُنِ الإنسان. فقد اقترب منها الراعي، والعالم، والشاعر على حدّ السواء. وهذا شيئ طبيعي. فقد عرف الإنسان الطبيعة قبل أن يعرف المدن، والحواضر، وسَحَره جمال الطبيعة قبل أن يقف معجبا بجمال المدن، والحواضر. إذ نَظَم فيها الشعراء القصائد الشعرية. فكان ذلك دليلا على حبّهم لها، وإعجابهم بجمالها.

والشابي أحد هؤلاء الّذين احتلّت الطبيعة عندهم مكانة بارزة، وأصبحت مضمونا فكريّا في شعره. وقد غدا معروفا أنّ الشاعر أبا القاسم الشابي قد نال اهتماما كبيرا من قِبَل الباحثين في تونس، وفي غير تونس [1] . أمّا الدوافع التي جعلتني أختار موضوع (الطبيعة في شعر أبي القاسم الشابي) فيمكن أن نردها إلى عاملين أساسيين، هما :

العامل الأول :

ويتمثل في إعجابي الكبير بشعر الشابي، عموما وشعره في الطبيعة [2] ، بوجه خاص.

---

[1] ـــــ راجع قائمة مراجع الشابي في أطروحة الباحثة الإيطالية ألبرطة بارنديني (Alberta BERNADINI) حول (أدب أبي القاسم الشابي). مجلة (الآداب العربية) ـ IBLA تونس، عدد 131، 1975، ص ص 37-177.

[2] ـــــ لاأقصد بـ (شعر الطبيعة) -هنا- الطبيعة كغرض شعري مستقل كما عرفه الأدب العربي القديم، ولكن أقصد بـ (شعر الطبيعة) تلك القصائد التي تخللتها الألفاظ الدالة على الطبيعة. ذلك أنّ (شعر الطبيعة) كغرض شعري، قليل في شعر الشابي كما سيتضح ذلك في هذا البحث.

العامل الثاني :

ويكمن في أنّ الدراسات التي تناولت موضوع (الطبيعة في شعر الشابي)، والتي أتيح لي الإطلاع عليها لم يفرد أصحابها دراسة مفصلة عن هذا الموضوع كما أنّ هذه الدراسات لم تبن نتائجها على الإحصاء. فكان ذلك دافعا مهمّا جعلني أولي هذه المسألة بعض ماتستحق من العناية، وبالإضافة إلى ذلك فقد اعتمدت، في إنجاز هذا البحث على مبدأ عام، وأساسي، وهام من مبادئ المنهج البنيوي (Structuralisme) هو استنطاق النصوص الشعرية ،قبل اللجوء إلى أيّ مُعْطَىً آخر. وأوّلها المعطى التاريخي. وقد كان لتشجيع أستاذي د.شايف عكاشة أكبرالأثر في إقبالي على هذا الموضوع. فجاء هذا البحث في تمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة.

أمّا التمهيد فقد أحصيت فيه عناصر الطبيعة التي وردت في شعر الشابي، بدءا بعناوين القصائد كما أحصيت مظاهر الحياة في المدينة، واستعرضت، باختصار بعض النتائج الأوليّة التي توصلت إليها. وأمّا الفصل الأوّل فخصصته للروافد التي استمد منها الشابي أفكاره عن الطبيعة، من أدب عربي، وأدب أوروبي، والبيئة المحلية، وأشرت بصفة خاصة إلى أثر جبران خليل جبران في ذلك، بالنسبة للأدب العربي، وأثر لامرتين (LAMARTINE) بالنسبة للأدب الأوروبي. وقد قسمت الطبيعة في شعر الشابي إلى قسمين رئيسيين، هما: (الطبيعة الصامتة)، و(الطبيعة الحيّة)، ضبطا للموضوع، وتسهيلا للدراسة . فجعلت (الطبيعة الصامتة)، عنوانا للفصل الثاني. ودرست فيه

---

[1] _____ انظر، 1 - TSVETAN , Todorov,

Qu'est ce que le structuralisme ?

2 - poétique

Edition du Seuil, 1968 . ص 16 ومابعدها

ظاهرة العزلة في الغاب عند الشابي. فأشرت إلى الأسباب الأساسية التي دفعت الشابي إلى العزلة، مع التركيز على سبب نفوره من المدينة. وأمّا الفصل الثالث، فجعلت (الطبيعة الحيّة)، عنوانا له. ووجدت أنّ (الطبيعة الحية) في شعر الشابي تنحصر، بصفة خاصة في (الطيور)، بالنسبة للحيوان، و(الراعي)، بالنسبة للإنسان.وأشرت إلى بعض الأسباب التي جعلت الشابي يُولي هذين الكائنين عناية كبيرة كما أشرت إلى بعض الأسباب التي جعلته يمتنع عن ذكر بعض عناصر الطبيعة الحيّة، الأخرى. أمّا الفصل الرابع. فقد درست فيه الصورة الفنية في شعر أبي القاسم الشابي. وقد وجدت أنها تتمثل، على وجه الخصوص في التشبيه، والإستعارة، وأبرزت، في آخر هذا الفصل مدى انسجام اللفظ مع المعنى في أسلوب الشابي من خلال نموذجين، هما قصيدة (النبي المجهول)، وقصيدة (صلوات في هيكل الحب).

وأمّا الخاتمة فكانت خلاصة لبعض النتائج التي توصلت إليها. وقد أشرت فيها إلى الدور الّذي قامت به الطبيعة في تحديد نظرة أبي القاسم الشابي إلى المدينة، والحياة، والموت، والكائنات كما أشرت فيها إلى البعد الإنساني الّذي اكتسبته الطبيعة في شعر الشابي، والدور الّذي لعبته في إثراء الصورة الفنية، والعبارة الشعرية. وأمّا المصادر التي اعتمدت عليها في هذا البحث فتتمثل في ماكتب الشابي، شعرا، ونثرا. ويتصدرها ديوانه الشعري (أغاني الحياة) [1] . وأمّا

---

[1] _____ هو الديوان الشعري الوحيد. وقد شرع الشابي في جمعه سنة 1934م. وتطوع الشاعر أحمد زكي أبو شادي للإشراف على طبعه ولكن وفاة الشابي في السنة نفسها التي بدأ الشابي يجمع فيها ديوانه حال دون إتمام عملية الطبع. وقد ظهر ديوان (أغاني الحياة) لأول مرة سنة 1955م. للتوسع راجع : أبو القاسم محمد كرو، الشابي : حياته وشعره. ليبيا ـ تونس : الدار العربية للكتاب، 1984م ص 130، وراجع ـ أيضا ـ عز الدين إسماعيل، دراسة وتقديم لـ : ديوان (أغاني الحياة) لأبي القاسم الشابي، بيروت : لبنان، دار العودة، 1972، ص 563.

المصدر الثاني فهو كتاب (الخيال الشعري عند العرب). والكتاب محاضرة ألقاها الشابي في قاعة (الجمعية الخلدونية) بتونس سنة 1929 تحت إشراف (النادي الأدبي) لـ:(جمعية قدماء الصادقية). تناول فيه المؤلف قضية (الخيال الشعري عند العرب). في الأساطير العربية، وفي الطبيعة، والقصة، والمرأة. وأهمية هذا الكتاب تكمن، بصفة خاصة في الفصل الّذي خصصه الشابي للطبيعة وَبيَّن فيه رأيه، بوضوح تام فيما يتعلّق بنظرة الأدب العربي، والأوروبي إلى الطبيعة. وأمّا المصدر الثالث فهو (رسائل الشابي). وقد أعدّها صديق الشابي، محمد الحليوي. وكان الشابي قد بعثها له مابين سنة 1929م، و 1934م. وتضم أربعا وثلاثين رسالة. ومضمون هذه الرسائل جملة من الأفكار، والخواطر التي كانت تشغل تفكير الشابي، ويتصدرها انشغاله بالطبيعة. أمّا المصدر الرابع فهو (مذكرات الشابي). وتتناول بعض الأفكار التي دوّنها الشابي في حياته. وهي مهمة ــ أيضا ــ، لأنها تكشف عن بعض آراء الشابي المتعلقة بالحياة، والموت، والطبيعة رغم أنها لاتتناول إلاّ فترة قصيرة من حياة الشاعر.فهي تبدأ يوم الأربعاء 01 يناير 1930م، ونتتهي يوم الخميس 06 فبراير من السنة نفسها. أمّا المراجع التي اعتمدت عليها في إنجاز هذا البحث فيمكن تقسيمها إلى قسمين :مراجع أساسية:

ويأتي على رأسها كتاب (الشابي : حياته وشعره) لأبي القاسم محمد كرو. وتكمن أهمية هذا المرجع في كونه يؤرخ لحياة الشابي، الإجتماعية، والفكرية، والأدبية، زيادة على أن المؤلف جمع في هذا الكتاب مختارات ممّا كتب

الشابي، شعرا و نـثرا. أمّـا المرجـع الثـاني فهـو كتـاب (دراسـات عـن الشـابي)، للمؤلف نفسه. وقد جمع المؤلـف في هـذا الكتـاب كثـيرا مـن الدراسـات الـتي كتبـت عـن الشـابي، في المشـرق، والمغـرب العربيـين. وهـي في حـدود سـبع وعشرين دراسة. لعلّ أبرزها أهميّة بالنسبة لموضوع هذا البحـث دراسـة إيليـا الحاوي (الطبيعة والزمن، أو رموز الحياة والموت في شعر إبي القاسم الشـابي) ودراسة سلمى الخضـراء الجيوسـي (أبعـاد الزمـان والمكـان في شـعر الشـابي). وأهمية هاتين الدراستين تكمن في كونهما أفادا هذا البحث إفادة مباشـرة. ومـن المراجع الهامّة، يمكن أنّ نذكر ـ أيضا ـ كتـاب (الشـابي وجـبران) لـ : خليفـة محمد التليسي، وخاصة الفصل الذي خصصه لـ : (الطبيعة في شـعر الشـابي)، رغم أنّ عدد صفحاته قليلة جدّا،

بالإضافة إلى الفصل الّذي خصصه المؤلف لتأثر الشابي بجبران. ومن المراجع الهامّـة كتاب (الرومانتيكية) لـ : محمـد غنيمـي هـلال. ويـؤرخ هـذا الكتـاب للحركـة الرومانتيكية في أوروبا، ويدرس المبادئ العامّة التي قامت عليها. ويمكـن أن نذكـر دراسة فايز ترحيني (الرومانسية في الأدب). وقد بحث الكاتب، باختصـار المبـادئ العامّة للرومانتيكية، في الأدبين الغربي، والعربي. أمّا المراجع الأخرى الـتي أفـادت البحث إفادة مهمة فيمكن أن نذكر على وجه الخصـوص كتـاب (قـراءات) لـ : عبد السـلام المسـدى، وكتـاب (اتجاهـات الشـعر العربـي المعـاصر) لـ : إحسـان عبّاس، من سلسلة (عالم المعرفة)، وكتـاب (الحركـة الأدبيـة والفكريـة في تونـس) للمرحوم محمد الفـاضل بـن عاشـور، وكتـاب، علـى البطـل (الصـورة في الشـعر العربي)، وغيرها من الكتب التي وردت في قائمة المصادر، والمراجـع، وأسـهمت في توفير المادة العلمية التي كان البحث في حاجة إليها.

وأما العقبة الرئيسية التي واجهتني في إنجاز هذا البحث فتتمثل في العملية الجراحية التي أجريت على عيني اليمنى. فكانت صدمة عنيفة أعاقت التطور الطبيعي للبحث، وابتلاء عظيما. فحمدت اللّه على هذا الإبتلاء، وأثنيت عليه.

وأخيرا أسجّل شكري، وخالص امتناني إلى أستاذي د. شايف عكاشة الّذي رعى هذا البحث، ووجّه مساره كما أوجه شكري إلى مدير معهد اللغة والأدب العربي، والمدير المساعد المكلف بالدراسات مابعد التدرج، وأعضاء المجلس العلمي الّذين احتضنوا هذه الدراسة منذ كانت مشروعا، وإلى المشرفين على مكتبة معهد اللغة والأدب العربي الّذين اتاحوا لي فرصة الإطلاع على المراجع التي استقيت منها مادة هذا البحث.

وفي الأخير آمل أن يكون هذا البحث لبنة متواضعة في صرح الأدب العربي الحديث كما آمل أن أكون قد وفّقت بعض التوفيق. فقد حاولت أن أجتهد. وعسى أن يكون هذا الإجتهاد قد حقّق بعض أهدافه. وماتوفيقي إلاّ باللّه. هو الموفّق. وهو المعين.

التمهيد

مرحلة الإحصاء

استوقفتني في شعر أبي القاسم الشابي ظاهرتان بارزتان، على مستوى العناوين والنصوص، هما :

الظاهرة الأولى :

و تتمثل في كثرة العناوين التي تدل على الطبيعة دلالة مباشرة، أو تشير إليها إشارات ضمنية .

و الجدول الآتي، يلخص ذلك :

عنوان القصيدة	الصفحة
تونس الجميلة	24
جمال الحياة	32
أنشودة الرعد	39
غرفة من يم	41
الزنبقة الذاوية	51
أيها الليل	74
جدول الحب	80
المساء الحزين	92
بقايا الخريف	96
في فجاج الآلام	101
مناجاة عصفور	105
قبضة من ضباب	118
رثاء فجري	172
في ظل وادي الموت	203

عنوان القصيدة	الصفحة
الجنة الضائعة	209
من أغاني الرعاة	216
أيتها الحالمة بين العواصف	220
صوت من السماء	225
ذكرى صباح	226
الصباح الجديد	230
تحت الغصون	241
زوبعة في الظلام	255
الغاب	262
فلسفة الثعبان المقدس	272
زئير العاصفة	276
في سكون الليل	287
إلى البلبل	290
أنسيم يهب	299

فهذه العناوين – إذن – تمثل 30،52 % ، من مجموع قصائد الديوان [1] .
و هذه النسبة تدعونا – منذ البداية – للإشارة إلى الملاحظات الأولية الآتية :

1 ـ ميل واضح، لَدَى الشابي، نحو الطبيعة، و انشغال مبكر بها.

2 ـ غياب ملاحظ لتلك العناوين التي تدل على الطبيعة التي أَوْجَدها الإنسان في محيطه، كالرياض، و البساتين، و الحدائق، و الأنهار، و البِرَك، وغيرها. و هذه الملاحظة هامة، و دالة، كما يتضح ذلك في الفصل الثاني، من هذا البحث.

وإذا صحت هذه الافتراضات فإن اختيار أبي القاسم الشابي لهذه العناوين، قد يكون نابعا، عن وعي، و دراية. و يبدو أنّ هذه العناوين قد اجتذبت الشابي، وحركت في نفسه شعورا بالارتياح، بسبب ما يمكن أن تجسّده من معانٍ، وأفكار في تصوره. ولا غرابة في ذلك. فالعناوين في النصوص الشعرية ذات علاقة ببقية النص، و على درجة كبيرة من العمق الدلالي.

---

[1] _____ وهي مائة وتسع قصيدة (109). أوّلها قصيدة (الغزال الفاتن)، وآخرها قصيدة (أنسيم يهب)، كما وردت مرتّبة في ديوان (أغاني الحياة). نشر : دار التونسية للنشر 1980

ولَئِنْ كانت هذه العناوين قد اجتذبت الشابي و أثارت انتباهه، فإن بعض هذه العناوين قد تكون لفتت إنتباهه، أكثر من غيرها، بسبب ما يمكن أن ترمز إليه، من خواطر، و أفكار، و مايمكن أن تجسده، من دلالات، في مخيلته.
ويمكن أن نحصر هذه العناوين،على وجه الخصوص في :

الغاب
المساء الحزين
أيها الليل
بقايا الخريف
الزنبقة الذاوية
الجنة الضائعة
إلى البلبل
مناجاة عصفور
من أغاني الرعاة

و لاغرابة أن تثير هذه العناوين انتباه الشابي. فهي ستصبح، على مستوى النص الشعري من بين عناصر الطبيعة التي يوليها الشاعر عناية كبيرة. ويمكن أن ننظر إلى الطبيعة في شعر الشابي من خلال هذه العناصر.

وإذا كانت هذه الملاحظات جزئية، ومحدودة، فإنها تشير – من الآن – إلى أن الشابي، مهتم بالطبيعة،منشغل بها، إلى درجة جعلته يعتقد أن الشعر الحق هو ذلك الذي يصوّر مظاهر الطبيعة. وهذا المقياس –في تصور الشابي– هو المقياس الصحيح الذي ينبغي أن يقاس به الشعر.وكأن الشعر –عنده– تصوير للطبيعة، أو محاكاة لها.

وهذا مايمكن أن نفهمه من قوله :

<< إن الشعر ياصاحبي هو ما تسمعه في ضجة الريح و هدير البحار، و في بسمة الوردة الحائرة يدمدم فوقها النحل ويرفرف حواليها الفراش، و في النغمة المغردة يرسلها الطائر في الفضاء الفسيح، و في وسوسة الجدول الحالم المترنم نحو البحار، وفي مطلع الشمس و خفوق النجوم... فهل بعد ذلك تسألني عن الشعر ؟>> [1]

فالشابي (عندما يلتجئ إلى حصر المقياس الذي يقاس به الشعر، في الشعر الذي يصور مظاهر الطبيعة) قد يكون واعيا لما يكتب، مدركا لما يتضمن تفكيره، وهو إنما يفعل ذلك، ابتغاء التأكيد على أنه مهتم بالطبيعة – فعلا –، منشغل بها – حقيقة –.

---

[1] _____ من مقال للشابي، تحت عنوان : الشعر، مايجب أن يفهم منه ؟ وما مقياسه الصحيح، أورده أبو القاسم محمدكرو في كتابه، الشابي : حياته و شعره ص 267

وهذا مايمكن أن نستنتجه – أيضا – من النص السابق و هو الإستنتاج نفسه الذي أصبح ثابتة من الثوابت في شعر الشابي – كما سنرى –

الظاهرة الثانية : و تتمثل في طغيان الألفاظ [1] التي تدل على الطبيعة، دلالة بارزة، على مستوى النصوص الشعرية. و الجدول الآتي [2] قد يلخص النتيجة التي توصل إليها هذا العمل :

---

1 _____ أقصد بالألفاظ، كل الكلمات، سواء كانت هذه الكلمات اسماءفي صيغة المفرد، أو في صيغة الجمع، مذكرا، أو مؤنثا، أو كانت فعلا، نحو : غاب، غابات، زهرة، زهور، بلبل، بلابل، وردة، ورود، طائر، طيور، أَوْرَق، أَزْهر، اخْضَرّ...إلخ.

2 _____ اعتمدت في هذا الجدول على إحصاء كامل قصائد الديوان، كلمة، كلمة و استخرجت النسب المئوية للألفاظ الدالة على الطبيعة في كل قصيدة و النسب المئوية التي توصلت إليها ليست دقيقة، دقة تامة، و لكنّها لا تبعد كثيرا عن الدقة.

النسب المئوية للألفاظ التي تدل على الطبيعة، في كل قصيدة.

القصيدة	الموضوع	تاريخ كتابة القصيدة(1)	النسب المئوية	ملاحظات
الغزال الفاتن	في الغزل	1923	8،28	
أيها الحب	في الغزل	1924	8،47	
خله للموت	في الوطن	1924	صفر	
النجوى	في الوطن	1925	9،54	
تونس الجميلة	في الوطن	1925	6،42	
شعري	بياني	1925	3،60	
الصيحة	الإجتماع	1925	12،04	
في الظلام	في الذات، عام	1925	18،84	
جمال الحياة	في الطبيعة	1925	28	
من حديث للشيوخ	في التأمل	1925	30	
نظرة في الحياة	في التأمل	1925	8،77	
الحياة	في التأمل	1925	9،09	
أنشودة الرعد	في الطبيعة	1926	22،59	
غرفة من يم	في التأمل	1926	6،30	
مأتم الحب	في الغزل	1926	12،50	
الكآبة المجهولة	في الذات	1926	6،35	
شكوى اليتيم	في الذات	1926	9	
الزنبقة الذاوية	في الطبيعة	1926	9،14	
يا شعر	بياني	1926	12،68	
إلى الطاغية	في الوطن	1927	3،30	
السآمة	في الذات، عام	1927	10،25	
أغنية الأحزان	في الذات، عام	1927	2،65	
الدموع	في الذات، عام	1927	10،37	

1 ـــــــ هذه التواريخ مثبتة في ديوان الشابي الذي اعتمدت عليه، في هذه الدراسة.

القصيدة	الموضوع	تاريخ كتابة القصيدة	النسبة المئوية	ملاحظات
أيها الليل	في الذات، عام	1927	10،37	
المجد	في التأمل	1927	12،12	
الحب	في التأمل	1927	14،03	
جدول الحب	في الغزل	1927	14،96	
سر مع النهر	في التأمل	1927	صفر	
الذكرى	في الغزل	1928	12،62	
الطفولة	في الغزل	1928	12،50	
قالت الأيام؛	الوطن	1928	9،75	
المساء الحزين	في الطبيعة، الذات	1928	14،42	
بقايا الخريف	في الطبيعة، الذات	1928	14،59	
أغنية الشاعر	في الذات	1928	6،35	
في مجاج الآلام	في الإجتماع	1928	8،30	
مناجاة عصفور	في الطبيعة، الذات	1928	14،44	
يارفقي	في التأمل	1928	8،91	
إلى الموت	في الذات	1928	7،08	
إلى عازف أعمى	في الإجتماع	1928	14،28	
صوت تائه	في التأمل، الذات	1928	5،18	
قبضة من ضباب	في التامل	1928	0،1	
نشيد الآسى	في الذات	1928	20،21	
قلت للشعر	بياني	1928	16،45	
ياإبن أمي	في الوطن	1927	30،64	
أغاني التائه	في الذات	1929	23،62	
إلى قلبي التائه	في الذات	1929	14،46	
أكثرت ياقلبي فماذا تروم	في الذات	1929	12،68	
يا موت	في الرثاء	1929	9،31	

القصيدة	الموضوع	تاريخ كتابة القصيدة	النسبة المئوية	ملاحظات
إلى الله	في الذات	1929	7،66	
البنى المجهول	في الوطن	1930	22،22	
الأبد الصغير	في التأمل، الذات	1930	12،77	
صفحة من كتاب الدموع	في الذات	1930	15،60	
الجمال المنشود	في الغزل	1930	10،90	
طريق الهاوية	في الغزل، التأمل	1930	10،07	
ياحماة الدين	في الإجتماع	-	2،34	هذه القصيدة، مؤرخة في الديوان، على هذا الشكل، 16 جمادي الأول 134 [و قد تكون السنة هي 1934
شجون	في التأمل	1930	6،15	
الأشواق التائهة	في التأمل، الذات	1930	16،08	
أحلام شاعر	في الذات	1931	11،11	
قيود الأحلام	في الذات	1931	5،55	
؟	في التأمل	1931	0	هذه القصيدة مثبتة، في الديوان، بدون عنوان
رثاء فجري	في الذات، ولطبيعة	1931	20	
أنا أبكيك للحب	في الغزل، و البكاء	1931	10	
ابناء الشيطان	في الإجتماع و التأمل	1930	7،05	
ضلوان في هيكل الحب	في الغزل	1931	9،70	
أراك	في الغزل "	1931	13،37	
فكرة الفنان	في التأمل	1931	10،89	
سر النصوص	في التأمل "	1931	4،45	
قلب الأم	في الرثاء	1931	25،49	
حديث المقبرة	في التأمل	1932	14،31	
في ظل واد الموت	في التأمل "	1932	10،63	

القصيدة	الموضوع	تاريخ كتابة القصيدة	النسبة المئوية	ملاحظات
الساحرة	في الغزل	1932	6،01	
الجنة الضائعة	في الذات	1933	19،23	
السعادة	في التأمل	1933	8،18	
من أغاني الرعاة	في الطبيعة	1933	34،37	
أيتها الحالمة بين العواصف	في الغزل ولتأمل	1933	76،30	
التاريخ	في الوطن	1933	6،45	
صوت من السماء	في التأمل	1933	3،5	
ذكرى صباح	في الغزل	1933	25،33	
الرواية الغريبة	في التأمل	1933	4،65	
الصباح الجديد	في الذات	1933	17،74	
ألحان السلوى	في الغزل	1933	15،13	
إرادة الحياة	في الوطن	1933	21،04	
تحت الغصون	في الغزل	1933	13،90	
إلى الشعب	في الوطن	1933	7،29	
الناس	في التأمل	1933	2،12	
متاعب العظة	في التأمل	1933	صفر	
نشيد الجبار	في الفخر	1933	16،96	
زوبعة في ظلام	في التأمل	1933	23،80	
الإعتراف	في الذات	1934	3،50	
قلب الشاعر	في الذات	1934	24،76	
إلى طغاة العالم	في الوطن	1934	9	
الغاب	في الطبيعة	1934	21،42	
حرم الأمومة	في التأمل	1934	صفر	

قصيدة	الموضوع	تاريخ كتابة القصيدة	النسبة المئوية	ملاحظات
شكوى ضائعة	في التأمل	1934	6،21	
الدنيا الميتة	في الإجتماع	1934	12،58	
فلسفة الثعبان المقدس	في التأمل و السياسة	1934	1،58	
قال قلبي لإله	في الذات	-	31،91	هذه القصيدة، مثبتة، في الديوان بدون تاريخ
زئير العاصفة	في الوطن	-	4،65	الملاحظة نفسها
إياك	في الغزل	1927	5،26	
كهرباء الغرام	في الغزل	1927	6،66	
صيحة الحب	في الغزل	1927	7،65	الملاحظة نفسها
وعود الغواني	في الغزل	1927	15،38	
ليلة عند الحبيب	في الغزل	1927	14،28	
ليت شعري	في الذات الوطن	1927	10،81	
إلى البلبل	في الذات و الطبيعة	1928	13،07	
دموع الألم	في الذات	1928	2،34	
الأديب	في التأمل	-	14-91	وردت بدون تاريخ. وقد أبدى شقيق الشاعر المرحوم محمد الأمين الشابي ملاحظات حول نسبة هذه القصيدة إلى الشابي.أنظر بالديوان ص : 298
أنسيم يهب	في التهنئة	-	15،15	وردتْ بدون تاريخ-أيضا-

فالجدول السابق يعطينا فكرة بارزة عن الدور الذي تلعبه الطبيعة في الزاد اللفظي الذي استعمله الشابي في شعره، و يعطينا فكرة واضحة – أيضا – عن الدور الذي تقوم به الطبيعة في توضيح أفكار الشاعر، و تصوراته، كما يبيّن لنا إلى أيّ مدى كانت الطبيعة حاضرة في ذهنه. إذ بالرجوع إلى هذا الجدول يتضح أنه من بين قصائد ديوان (أغاني الحياة)، لم تخل من التواجد اللفظي للطبيعة إلا أربع مقطوعات صغيرة [1] .

ولعل أهم ما يمكن أن نسجله في هذا السياق، من خلال تصفح هذا الجدول، أن التواجد اللفظي للطبيعة في شعر الشابي بدأ يأخذ شكلا متناميا، بدءا من سنة 1928م، على وجه التقريب، و بشكل يدعو إلى التساؤل. و نقترح لتوضيح هذه المسألة، الرسم الآتي :

---

[1] ـــــــــ هي :

1 ـ حله للموت ـ ثلاث أبيات ـ ص 21

2 ـ سر مع الدهر ـ ثلاث أبيات ـ ص 85

3 ـ قبضة من ضباب ـ ست أبيات ـ ص 118

4 ـ حرم الأمومة ـ ثلاث أبيات ـ ص 267

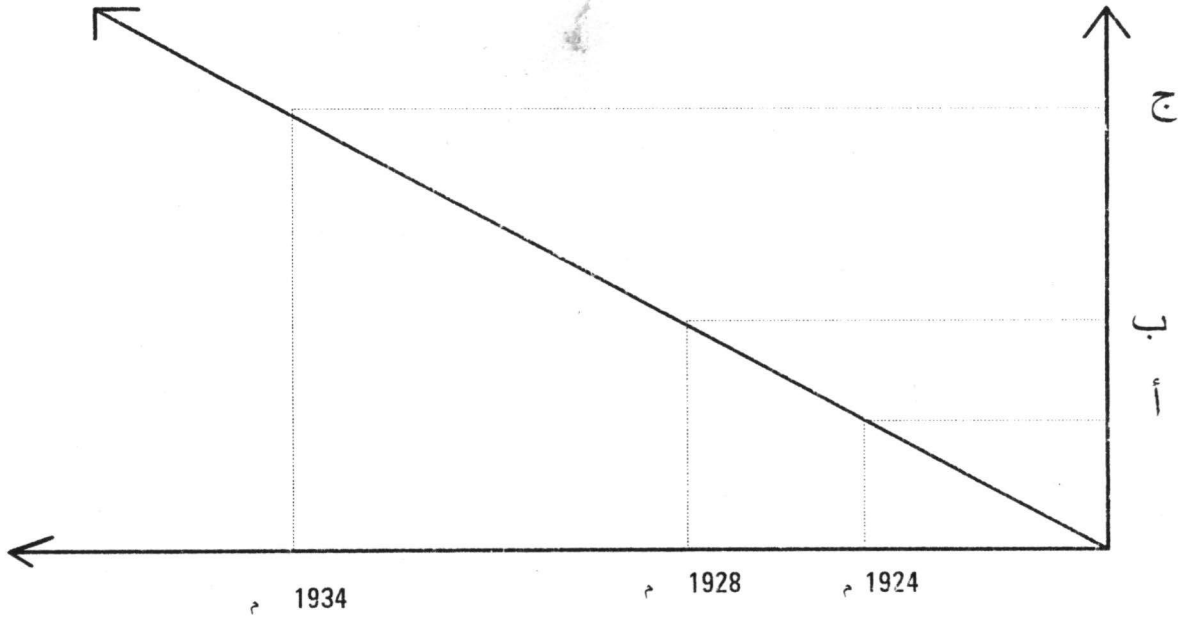

أ ـ يمثل هذا التاريخ بداية عملية الإبداع الشعري عند الشابي، على وجه التقريب ذلك أن أول قصيدة مثبتة في الديوان، بهذا التاريخ هي قصيدة (الغزال الفاتن). وهي أقرب إلى النظم منها إلى الشعر.

و قد ذكر د.عبد السلام السدى أن بداية النضج الشعري للشابي كان سنة 1924، بقصيدة (أيها الحب). و لهذا السبب اعتمدنا على هذا التاريخ في تحديد عملية الإبداع الشعري عند الشابي، للتوسع في هذه المسألة، أنظر : عبد السلام المسدى، قراءات، الشركة التونسية للتوزيع 1981، ص 15

ب ـ يمثل هذا التاريخ بداية تطور ظهور الطبيعة في شعر الشابي

ج ـ السنة التي توفي فيها الشابي، انظر : ـ أبوالقاسم محمد كرو ـ الشابي : حياته و شعره ص 43، وانظر ـ أيضا ـ ترجمة حياة الشاعر، بقلم شقيق الشاعر، محمد الأمين الشابي، في مقدمة ديوان (أغاني الحياة)، ص 9.

أما الكاتب Gaston Wliet فيرى أن وفاة الشابي كانت سنة 1933م. ولا ندري المصدر الذي انتقى منه الكاتب هذا التاريخ.

انظر كتابه (Introduction à la litterature arabe)

G . P Maisonneuse et Larosse, Paris ب. ت، ص : 306

وهذه الظاهرة الملفتة للإنتباه قد تعود إلى أن اتصال أبي القاسم الشابي بالمدرسة الرومانتيكية بدأ يشتدّ في هذه المرحلة التارخية من مراحل حياته الفنية [1].

وهذا شيء طبيعي. فالرومانتيكي، تقوم فلسفتُه، في الحياة، على التقرب من الطبيعة، و اعتبارها المكان الآمن الذي يوفر له أسباب الراحة و السعادة[2]ـ كما يتضح ذلك في الفصل الثاني ، والشابي أحد هؤلاء الرومانتيكيين [3] الذين اقتربوا من الطبيعة، فكرا و شعورا، و أحسوا بوجودها ـ حقيقة ـ فهي تحيا في قلبه، و تعيش في ذاكرته. و قصيدة (قلب الشاعر) قد تفصح عن هذا المعنى.

ومن المهم أن نستشهد بها ـ هنا ـ فهي تلخص الفكرة السابقة تلخيصا واضحا، يغنينا عن أي شك، أو تأويل، فيما يتعلق بهذه المسألة. وهذه هي القصيدة :

---

1 ـــــ أشار إلى هذه القضية د. سليم زيدان في دراسة له عن (معنى الغناء في أغاني الحياة)، حوليات الجامعة التونسية، عدد 20، 1981، ص 144

2 ـــــ انظر، محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية، بيروت، لبنان، دار العودة ـ دار الثقافة، 1973، ص ص 170 - 171

3 ـــــ كان الشابي عضوا بارزا في(جماعة أبولو) التي تأسست سنة 1932، وقد ترأسها أحمد شوقي، و كان الشاعران، خليل مطران، وأحمد زكي أبوشادي نائبين له، ثم ترأسها بعد وفاة شوقي، خليل مطران. وكان هدفها الرئيسي الدعوة إلى الرومانسية الجديدة، للتوسع في معرفة (جماعة أبولو)، انظر، محمد سعد فشوان، جماعة أبولو في ضوء النقد الحديث، دار المعارف، القاهرة، ب.ت، ص : 3 - 7 - 63

كل ماهب ومادب وما نام، أو قام على هذا الوجودْ
من طيور، وزهور، وشذى وينابيع، وأغصان تميدْ
وبحار،وكهوف، وذرى وبراكين، و وديان، وبيدْ
وضياء، وظلال، ودجى وفصول، وغيوم، ورعودْ
وثلوج، وضباب، عابر وأعاصير، وأمطار، تجودْ
وتعاليم، ودين، ورؤى وأحاسيس، وصمت، و نشيدْ
كلها تحيا بقلبي حرّة غضة السحر، كأطفال الخلودْ[1]

فأوّل مايمكن أن يستوقفنا فيها أن الشاعر أورد كثيرا من عناصر الطبيعة، بمظهرها، الصامت، الحيّ [2] .

وذكر في مقدمة هذه العناصر، الطيور، و الزهور، ومايصدر عن الزهور، من الشذى.

ويبدو أن استخدام الشاعر لهذه العناصر ليس صدفة، و إنما هو تذكير، منه بمكانة هذه العناصر في نفسه. و هذا مانتبيّنه في الفصلين، الثاني و الثالث.

---

[1] ـــــ الديوان، ص 258

[2] ـــــ أعنى بالطبيعة الصامتة (كل عنصر غير ذي شعور، من عناصر الطبيعة)
و أعنى بالطبيعة الحية (كل عنصر ذي شعور). فقد استعمل هذين المصطلحان د. سيد نوفل في كتابه :(شعر الطبيعة في الأدب العربي)، مكتبة الخانجي، بمصر، 1945، ص ص 38-210
أما د. محمد الهادي الطرابلسي فقد استعمل مصطلحي(الطبيعة الجامدة) و (الطبيعة المتحركة)
في كتابه :(خصائص الأسلوب في الشوقيات)، منشورات الجامعة التونسية، عدد 20،1981، ص : 197 - 198 - 199.
وقد آثرت استخدام مصطلحيّ (الطبيعة الصامتة)، و (الطبيعة الحية)، لأنهما أكثر استخداما، و أكثر وضوحا في الأذهان - على ما يبدو -

ولعل أهم ملاحظة يمكن أن تلفت انتباهنا من خلال الاستقراء الموضوعي لأبيات القصيدة السابقة أن الشابي قد تحدث عن الطبيعة في السياق نفسه الذي تحدث فيه عن (التعاليم، و الدين، و الرؤى، و الأحاسيس). و هذا التجاور في المعنى يعطينا انطباعا أوليا على أن الشابي ينظر إلى الطبيعة نظرة روحية. وقد تفضي بنا النصوص الشعرية التي تضمّنها ديوان (أغاني الحياة) إلى الظفر بذلك وينبغي أن نشير في آخر هذا التمهيد إلى أن تقسيم الطبيعة، إلى طبيعة صامتة، وطبيعة حية لا يعني الفصل بين المساحات الدلالية، و إنما هو تقسيم منهجي هدفه، تبسيط الدراسة. بيْد أنّه لا بد من إحصاء جميع عناصر الطبيعة التي وردت في شعر الشابي. وقد بَدَا من الضروري أن نقدمها على شكل الجداول الآتية :

الجدول الأول : اليابسة و المياه

الجدول الثاني : الظواهر الطبيعية

الجدول الثالث : النبات

الجدول الرابع : الحيوان

الجدول الخامس : الإنسان

الجدول الأول : اليابسة و المياه

الكلمة	تكرارها
الأفق	40
الجبل	32
الشفق	29
التراب	23
الجدول	22
الوادي	22
الأرض	20
الموج	20
البحر	16
الكهف	13
الخضم	11
الماء	11
النهر	11
القفار	08

الكلمة	تكرارها
الغدير	08
الينبوع	07
الخرير	07
الثلوج	06
حجر	04
النبع	03
شعاب	03
شاطئ	03
الرمل	02
الصحراء	02
الهدير	02
سهل	02
الربى	02

الجدول الثاني : الظواهر الطبيعية

الكلمة	تكرارها
الربيع	52
الريح	31
الضباب	26
الغيم	23
النسيم	18
العواصف	16
الرعد	13
الشمس	12
الزوبعة	11
السحب	08
الصبا	06
المطر	06
إعصار	06
الأنواء	04
البدر	03
القصف	02
البرق	02
الخريف	12
الشتاء	09
القمر	01

الجدول الثالث : النبات

الكلمة	تكرارها
الغاب	46
الظلال	44
الزهر	39
ورد	37
الشذى	18
الشجر	16
الشوك	16
النبات	15
صنوبر	10
الحقل	07
النخيل	07
ثمار	06
الرياض	05
السنديان	05

الجدول الرابع : الحيوان

الكلمة	تكرارها
الطائر	65
البلبل	18
العصافير	07
النحل	07
سرب	07
الشاة	04
حمامة	04
القطاة	04
الثعبان	03
الحمير	03
ذئب	02
فأر	02
فراش	02
الشحرور	04
العندليب	01
الهزار	01
اليمام	01
القطة	01
الفرس	01
القرود	02

الجدول الخامس : الإنسان

الكلمة	تكرارها	ملاحظات
الناس	27	
النفس	21	
الشباب	16	
الشعب	13	
طفل	10	
الفتى	08	
الشاعر	06	
القوم	05	
الورى	04	
الشيخ	03	
الرعاة	02	
الأحياء	02	
الفنان	02	
الأديب	01	
العالم	01	
رجال	01	
المرأة	01	
آدم	01	
قس	01	
إمام	01	
أهل	01	
الأم	01	
أب	01	

وما يمكن استخلاصه من هذه الجداول أن الشابي قد أَوْلى بعض عناصر الطبيعة أهمية كبيرة. و هذه الأهمية تصبح ظاهرة بارزة على مستوى النصوص الشعرية. ورأينا من الضروري أن نقابل هذه الجداولَ، بجدول آخر يمثل مختلف مظاهر الحياة الإنسانية في المدينة. وهو أمر بديهي. ذلك أنّ <<الإنسجام يولد من التقابل.فالعالم كلّه مكوّن من عناصر متقابلة >> [1]. وما يقابل المدينة – في تصور الشابي –، وفي تصور الناس – أيضا – هو الغاب [2]. و هذا هوالجدول:

---

[1] _____هذه المقولة للناقد الغربي K. Sabina ، أوردها رومان جاكبسون (R . Jakobson) في كتابه (Huit questions de poétique). 1977، Edition, Points، ص 31

[2] _____سنستعمل خلال كامل فصول هذا البحث كلمة (الغاب)، رمزا للطبيعة العذراء التي لم تتدخل يد الإنسان في صنعها ـ كما فهمها الشابي، وكما فهمها الرومانتيكيون ـ. و هي <<المرحلة الموافقة للفطرة و البداءة>>. انظر : فايز ترحيني (الرومانسية في الأدب)، مجلة دراسات عربية، العدد 8/7، 1988، بيروت، لبنان، ص 124

مظاهر الحياة الإنسانية في المدينة

البنـاءات و الأسلحة	عدد المـرات التي تكـررت فيها الكلمة	أثاث البيـت والأسـلحة و المعادن	عدد المرات التي تكـررت فيها الكلمة	الآلات الموسيقية	عـدد مرات التي تكـررت فيهـا الكلمة
المدينة	06	الكأس	23	ناي	21
القصور	02	أكواب	02	المزامير	06
المحراب	02	قدح	01	معزف	05
معبد	01	السرير	01	قيثارة	04
اكواخ	01	مقعد	01	عود	02
عرصات	01	أرجوحة	01	دف	02
الحي	01	مائدة	01	شبابّة	01
رداء	05	لعب	01		
الجلباب	02	السيوف	02		
البرود	02	الحسام	02		
حلة	01	سلاسل	02		
تاج	01	ريشة	02		
		قلاع	01		
		سوط	01		
		قوس	01		
		الفأس	02		
		رفش	01		
		حديد	01		
		معاول	01		
		أسلاك	01		
المجموع	25	48	41		= 114 كلمة

إنّ اكتفاء أبي القاسم الشابي، في حديثه عن مظاهر الحياة الإنسانية في المدينة، بهذه الألفاظ القليلة، كما بيّن ذلك الجدول السابق، لا يخلو من بعض المعاني.

ولعلّ أقرب هذه المعاني إلى الأذهان أنّ الشابي لا يولي الحياة في المدينة تلك الأهمية التي يوليها للحياة في الغاب. ويبدو أن هذا الاستنتاج أهم ما يمكن استنباطه من الجدول السابق. فهل تبوح النصوص الشعرية بما يفصح عن أكثر من ذلك ـ دلالة ـ ؟

الفصل الأول

ينابيع آراء الشابي في الطبيعة

أولا : المصادر الثقافية

ثانيا : البيئة

جاءت آراء الشابي عن الطبيعة انعكاسا لثقافته، و أثرا من آثار البيئة التي نشأ فيها، و ترعرع، والوسط الذي تعرّف إليه. فكانت هذه الآراء صورة صادقة لتلك الثقافة، وصدى لتلك البيئة.

أولا : المصادر الثقافية

اعتمدت في توضيح المصادر الثقافية التي استمدّ منها الشابي نظرته إلى الطبيعة على مارأيت أنّه يمثل فكر أبي القاسم الشابي تمثيلا واضحا. و يعدّ كتابه (الخيال الشعري عند العرب) [1] ، في مقدمة هذه المصادر، من خلال ما استشهد فيه من أفكار غيره، أوما صرح به من آراء، تبناها، أو ارتضاها.ويمكن أن نشير إلى مصدرين من المصادر الثفافية التي أثرت في نظرة الشابي إلى الطبيعة، تأثيرا مباشرا، هما :

ا – المصادر العربية

ب – المصادر الأوروبية

ا – المصادر العربية

أصبح معروفا في تاريخ الأدب العربي الحديث أنّ أبا القاسم الشابي لم يكن يعرف لغة أجنبية، يطلّ من خلالها على الأدب و الثقافة الغربيّيْن إلاّ عن طريق مطالعته للآثار المترجمة [2] . و هذا الدافع هو الذي جعل الشابي يلجأ إلى مطالعة الآثار الأدبية التي كتبها الأدباء العرب الرومانتيكيون، و بخاصة ما كتبه رواد الرابطة القلمية في المهجر، كتّابا، وشعراء، ونقادا [3] . وعلى رأس هؤلاء الأدباء جبران خليل جبران، و ميخائيل نعيمة، و إيليا أبوماضي. فقد صادف الشابي في كتابات هؤلاء هوًى في نفسه. ذلك أن ماكتبه هؤلاء يعود

---

1 ـــــ نشر الدار التونسية للنشر، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ب.ت

2 ـــــ انظر، عز الدين إسماعيل، دراسة و تقديم لـ : ديوان (أغاني الحياة) لأبي القاسم الشابي. ص ص 11 -12.

3 ـــــ تأسست هذه الرابطة في المهجر الشمالي في الربع الأول من هذا القرن سنة 1920 في مدينة نيويورك. وكانت ذات نزعة رومانتيكية. من أهم أهدافها الدعوة إلى تجديد الأدب العربي. للتوسع، راجع، د. عيسى الناعوري.(الرابطة القلمية مدرسة التجديد الأدبي)، مجلة (الحياة الثقافية) العددان 37/36. تونس، 1985، ص 27 وما بعدها

في أصوله إلى الرومانتكية الغربية [1] . و مهما كانت المصادر العربية التي استقى منها الشابي أفكاره عن الطبيعة، فإن تأثير جبران في نفسه كان كبيرا.

يقول خليفة محمد التليسي : <<الشابي تلميذ نابغ لجبران >> [2] .

ويحدّد المؤلف (التلْمذة) بقوله : <<*والتلمذة تعنى التشابه في الخصائص الفنية و في فلسفة الحياة* >> [3] .

و يقول إحسان عباس :

<<*ولا نستطيع أن نحدّد مدرسة رومانطقية واضحة المعالم إلا في العصر الحديث...ومؤسسها جبران كان روماطقيا إلى أطراف أصابعه... وقد مجدت هذه المدرسة العودة إلى الطبيعة و ألّهت النغمة... وقد كثر تلامذة هذه المدرسة... فإذا بها تعم البلاد العربية فتظهر في الزهد، و التصوف، و الإغراق في الروحانية... وفي الميل إلى الطفولة و عشق المرأة المنحوتة من الوهم في شعر الشابي*>> [4] .

أما عيسى الناعوري، فيقول في السياق نفسه : <<*إن الشابي لم يتأثر بجماعة أبولو، ولو أنه عرف و اشتهر عن طريق مجلتها. أما تأثره الحقيقي -كما اعترف هونفسه – فقد كان شعراء الرابطة القلمية : جبران، و نعيمة، و إليا أبوماضي ونسيب عريضة. و يتضح هذا الأثر البارز في شعره الإنساني، و التأملي، و في شعر الطبيعة لديه و نثر[كذا] هذا لم يكن قط تقليدا و لكنه دلهٌ على طريقة الإبداع فقط*>> [5].

وهكذا نرى من خلال هذه الآراء التي أوردناها أن تأثر الشابي بجبران أصبح حقيقة تاريخية و أدبية ثابتة.

---

[1] _____ انظر، عز الدين إسماعيل، المرجع السابق. ص 12

[2] _____ الشابي وجبران. ليبيا ـ تونس : الدار العربية للكتاب. 1978، ص 47

[3] _____ المرجع نفسه و الصفحة نفسها

[4] _____ فن الشعر : بيروت : لبنان، دار الثقافة، الطبعة الثالثة،. ب .ت ص 51

[5] _____ (الرابطة القملية مدرسة التجديد الأدبي)،(مجلة الحياة الثقافية)، ص 39

ويهمني في هذا السياق، على وجه الخصوص الإشارة إلى بعض جوانب هذا التأثر، و أقف، بصفة خاصة عند حديث جبران و الشابي عن الغاب. فالغاب عند شعراء الرابطة القملية، و كتّابها، عموما، و عند جبران، بصفة خاصة رمز الجمال، و البساطة، و الحبور. وهذا ما نتبّينه من قوله :

ليس في الغابات حزن لا ولا فيها الهموم
فإذا ماهب نسيم لم يجئ معه السموم
ليس حزن النفس إلا طلّ وهم لا يدوم
وغيوم النفس تبدو من ثنايا النجوم [1]

وقوله – أيضا – :

ليس في الغابات موت لا ولا فيها القبور
فإذا نيسان ولّى لم يمت معه السرور
إن هول الموت وهم ينثني طي الصدور
فالذي عاش ربيعا كالذي عاش الدهور[2]

---

1 _____قصيدة (المواكب)، نقلا عن المجموعة الكاملة لجبران خليل جبران، قدم لها و أشرف على تنسيقها ميخائل نعيمة، بيروت، لبنان : دار صادر، ب. ت، ص 262

2 _____القصيدة نفسها و المرجع نفسه، و الصفحة نفسها.

أما الشابي فيقول عن الغاب :

في الغاب سحر رائـع متجـــــدد باق علـى الأيـام و الأعوام
وشذى كأجنـة الملائك، غامـــض ساه يرفرف فـي سكون سام
وجداول تشدو بمعســل الغنـــا وتسير حالمـة، بغير نظـام[1]

ويقول أيضا :

إن في الغاب أزاهيـرا و أعشابـا عـــذاب
ينشد النحل حواليهـــا، أهازيجا طـــراب
لم يدنس عطرها الطـاهر أنفـاس الدئـاب
لا، ولا طاف بها الثعلب في بعض الصّحاب [2]

فما يمكـن أن نلاحظه من خلال هذه النمادج القليلـة من قصيدة (المواكب) لجبران خليل جبران، و قصيدتي (الغاب)، و (من أغاني الرعاة) لأبي القاسم الشابي هو تطابق نظرة كل منهما إلى الغاب.

فجبران يرى أن الغاب موطن الجمال و السعادة، و رمز الطهارة، والحرية،و الانطلاق – كما سبقت الإشارة – و الشابي يرى –أيضا– أن الغاب هو المسكن الآمن الذي يحقق له السعادة، و يجعله أكثر انسجاما مع نفسه، ومع محيطه.

---

[1] الغاب – ص 262

[2] من أغاني الرعاة – ص 18

وهو الكتاب المفتوح الذي يستمد منه كثيرا من المعاني، و القيم التي لا يصبح الإنسان إنسانا إلا بها، كالعدل، و الحرية. وهذه المعاني هي التي أمكن أن نستخرجها من أبيات أبي القاسم الشابي السابقة.

ومن مظاهر تأثر الشابي بجبران هذا التطابق في الصياغة بين قصيدتي (البحر) لجبران، و(أنشودة الرعد) للشابي. أما جبران فيقول في قصيدته (البحر):

في سكون الليل لمّا تنثني يقظة الإنسان من خلف الحجاب
يصرخ الغاب : أنا العزم الذي أنبتته الشمس من قلب التراب

غير أن البحر يبقى ساكنا
قائلا في نفسه : العزم لي
ويقول الصخر : إن الدهر قد شادني إلى يوم الحساب

غير أن البحر يبقى صامتا
قائلا في نفسه : الرمز لي [1]

أما الشابي فيقول في قصيدته (أنشودة الرعد) :

في سكون الليل لما عانق الكون الخشوع
وإختفى صوت الأماني خلف آفاق الهجوع
رتل الرعد نشيدا رددته الكائنات
مثل صوت الحق إن صا ح بأعماق الحياة

---

[1] ـــــــ قصيدة (البحر)، المجموعة الكاملة لجبران خليل جبران، ص 606 -

يتهـــــادى بضجيـــج فـــي خلايـــا الأوديـــة
مثل جبّار بنـــي الجـــنّ بـأقصـــى الهـاويـــة

* * *

فسألت الليل و الليل كئيب، و رهيـب
شاخصا بالليل، و الليل جميل، وغريـب
<<أتـــرى أنشودة الرعد أنين، و حنيـن
رنمتهـا بخشـــوع مهجـــة الكون الحزيـن ؟
أم هي القوة تســعى باعتساف و اصطخـــاب
يتراءى فـي ثنايـــا صوتهـا روح العـذاب ؟>>

غير أن الليل قد ظل ركـودا، جامـدا
صامتا مثل غدير القفر، من دون صدى [1]

ومن قصائد جبران التي تأثر بها الشابي تأثرا وضحا قصيـدة (الشحرور).
وفيها يخاطب جبران (الشحرور) قائلا :

أيها الشحرور غـرّد فالغنا ســـر الوجـــود
ليتني مثلـك حـــر من سجـون و قيـــود [2]

---

[1] _____ أنشودة الرعد. ص ص 39–40

[2] _____ الشحرور ص 607

ويقول في القصيدة نفسها :

أيها الشـــحرور غـــنّ واصرف الأحـــزان عـــني

إن في صوتك صـــوتا نافخـــا فـــي أذن أذنى[1]

أما الشابي فيقول في قصيدته (إلى البلبل) :

أيّها البلبـل ياشاعـــر أحـلام الربيـع

غنني إن على صوتك أنداء الدمـوع

غنني فهو يريني أمل القلب الصـريع [2]

ويقول –أيضا– في القصيدة نفسها :

إن في صدرك أوتار السماء الساجعه

وبأعماقك أحلام الحيـــاة الرائعـــة

وبآفاقك فجرا مـن حيـــاة راتعـــة [3]

---

[1] _____القصيدة نفسها، و الصفحة نفسها

[2] _____إلى البلبل. ص 290

[3] _____القصيدة نفسها، و الصفحة نفسها

فهذه النمادج الشعرية لجبران خليل جبران و الشابي بيّنت، بوضوح بعض مظاهر تأثر الشابي بجبران، ذلك أنّه، بالإضافة إلى أن جبران و الشابي قد تناولا موضوعا في الطبيعة، انطلاقا من عناوين القصائد التي أشرنا إليها، فإنّهما إلتقيتا في طريقة التعبير التي استخدمها الشابي في الأبيات التي أشرنا إليها في السابق، والتي تكاد تكون هي الصيغة التعبيرية نفسها التي استخدمها جبران خليل جبران. وهذه الملاحظة تنطبق على كثير من قصائد أبي القاسم الشابي. وهذا كله يعني <<التشابه في الخصائص الفنية>>، كما أشار إلى ذلك خليفة محمد التليسي في بداية هذا الفصل.

وإذا كانت الصفحات السابقة لاتكفي لرسم كل الملامح الأساسية لتأثر الشابي بجبران، ولكنّها تحدد بعض المعالم الهامة لهذا التأثر، وخاصة فيما يتعلق بموضوع هذا البحث ويمكن أن ندرج هذه القضية فيما سمّاه خليفة محمد التليسي <<التشابه في فلسفة الحياة>>.

وأما مظاهر تأثر الشابي بمخائيل نعيمة، فتبرز على وجه الخصوص في مفهوم كل منهما إلى الشعر، و الشعراء. فالشعر في تصور ميخائيل نعيمة : <<... *هو ترنيمة البلبل و نوح الورق، وخرير الجدول وقصف الرعد... وهو الحياة باكية ضاحكة، وناطقة، وصامتة، ومولولة، ومهللة* >> [1].

وهذا المفهوم، كما بينه النص السابق يحصر الشعر في التعبير عن مظاهر الطبيعة. وهو المفهوم نفسه الذي حدّد به أبوقاسم الشابي الشعر [2] .

---

[1] _____ الغربال. مؤسسة نوفل، الطبعة الثانية عشرة، بيروت، لبنان، 1981، ص ص 76—77.

[2] _____ سبقت الإشارة إلى ذلك في التمهيد، انظر، صفحة 6

أما الشاعر فهو عند ميخائيل نعيمة «نبي وفيلسوف ومصور وكاهن »[1] وهو المفهوم نفسه الذي نجده عند الشابي، استنتاجا من قوله، مخاطبا شعبه، ومفتخرا بنفسه :

هكذا قال شاعر فيلسوف ... عاش في شعبه الغبي بنفس
جهل الناس روحه، وأغانيها ... فساموا شعوره سوم بخس
فهو مذهب الحياة نبي ... وهو في شعبه مصاب بمس[2]

فالشاعر عند أبي قاسم الشابي –إذن– (فيلسوف)، و(نبي)، لأنه يستشرف الحياة المثلى التي يطمح إليها الإنسان، ويعبّر عن كل مايسمو بالنفس الإنسانية، من مظاهر الجمال، وفي مقدمتها جمال الطبيعة في الغاب. ومفهوم الشعر، و الشاعر عند نعيمة، والشابي لايقف عند هذه الحدود بل إن الشعر، و الشاعرعندهما يكتسبان منزلة سامية. فالشعر الحق عند نعيمة وأبي قاسم الشابي هو ذلك الذي يصوّر مظاهر الجمال في الطبيعة، ويعبّر عن كل مايختلج في نفس الشاعر، من مشاعر متناقضة، كما رأينا ذلك في الصفحات السابقة.

أمّا الشاعر، عندهما، فلكي يصبح شاعرا حقا، وفيلسوف، ونبيا فينبغي أن يترفع عن الأمور المادية، ويرتفع بروحه إلى عالم سماوي، فيتحدّث إلى الناس (بلغة قلبه) –حسب تعبير الشابي–. وهو الذي « يرى بعينه الروحية مالايراه كلّ بشر»[3] – كما يقول نعيمة.

---

[1] ميخائيل نعيمة، المرجع السابق ص 84

[2] النبي المجهول . ص 147

[3] مخائيل نعيمة، المرجع السابق . ص 84

وهكذا نكون قد لمسنا بهذه الوقفة القصيرة مع الشابي، وجبران ونعيمة بعض مظاهر تأثر الشابي بالأدب العربي الرومانتيكي، و أدب جبران، ونعيمة، بصفة خاصة.

ولاشك في أنّ مظاهر التأثر لا تقف عند هذا الحدّ. فاللغة التي استخدمها جبران، ونعيمة في كتاباتهما، الشعرية، و النثرية بارزة في شعر أبي القاسم الشابي، من حيث سهولة الألفاظ، ووضوحها، وتعبيرها عن الذات، و الطبيعة مثل : الغاب، و الزهور، و الطيور و السواقي، و النسيم، والجداول، و الشذى، الراعي، و الغدير، وغيرها من الكلمات المحبّبة إلى نفوس الرومانتكيين.

ب – المصادر الأوروبية

لعلّ أقوى المصادر الثقافية، تأثيرا في نظرة الشابي إلى الطبيعة هي المصادر الأوروبية، وخاصة الأدب الأوروبي الرومانتيكي.

فقد وجد الشابي في هذا الأدب ماغذّى في نفسه حب المطالعة وأشبع فيها الشوق إلى معانقة عالم الأحلام، والعواطف، و الخيال. إذ قرأ لكبار الأدباء الرومانتكيين في أوروبا من أمثال جان جاك روسو(J. Jack Rousseau) * ،

---

* أديب فرنسي ولد سنة 1712، وتوفي سنة 1778. ويرى بعض مؤرخي الأدب أن جان جاك روسو هو رائد المدرسة الرومانتيكية في الغرب <<بما ترك في آثاره من تفنن بجمال الطبيعة وحب لها في كل مظاهرها>> انظر، محمد الحليوي، مع الشابي، سلسلة كتاب (البعث)، الطبعة الأولى، 1955، ص ص 12– 13.

وأ.دى لامرتين (A. de Lamartine)** ، وت جيتي*** . فهو يستشهد بما قاله هؤلاء عن الطبيعة، مبيّنا إعجابه بآرائهم، مقارنا نظرتهم إلى الطبيعة بتلك النظرة التي تكونت لديه عن الشعراء العرب القدامى من خلال مطالعاته لدواوينهم. ولعلّ أبرز الشعراء الأوروبيين، تأثيرا في نفس أبي القاسم الشابي هو لامرتين فقد أورد الشابي ماقاله هذا الشاعر عن الطبيعة، نثرا، مبرزا إعجابه بهذه الآراء قائلا :

<<يقول لامرتين : إن الطبيعة أكبر قساوسة الله وأمهر مصوريه وأقدر شعرائه وأبرع مغنيه، وإنك لتجد في عش العصفور تتناغى فيه فراخه تحت رفرف الهيكل الدارس، وفي أنفاس الرياح تهب من البحر حاملة إلى أديرة الجبل المقفرة خفوق الشرع وأنين الأمواج وغناء الصيادين... وفي الزهور ينتشر أرجها في الفضاء وينتشر ورقها على القبور... تجد في كل هذا من التق والروعة والتأثير ماكان في هذا الدير منه وهو في أبان عهده وعنفوان مجده>> [1]

ونجد الشابي يستشهد بما قاله الشاعر جيتي عن الطبيعة، مؤكدا إعجابه بهذه النظرة، بقوله :

<<ويقول جيتي : أرى كل شيئ حولي ينبت ويزهر، وحينما كنت أبصر هذه الجبال المغطاة بأشجار الدوم من أسفلها إلى أعاليها، وتلك الأودية المظللة مجانيها بالغابات الأنيقة وذلك النهر ينساب هادئا بين نغمات القصب المهتزة... أقول حينما كنت أرى

** شاعر فرنسي رومانتيكي، ولد سنة 1791 وتوفي سنة 1869. ومن أشهر قصائده الشعرية: -الخريف- الفراشة -البحيرة- العصافير في الشتاء. ومن أشهر آثاره النثرية، كتاب (رفائيل).

*** شاعر فرنسي رومانتيكي ولد سنة 1811 وتوفي سنة 1872. من أشهر قصائده تباشير الربيع الأولى.

[1] الخيال الشعري عند العرب ص 65

وأسمع هذه الأشياء أشعر أني أقرب مأيكون إلى التأله بما يفيض في قلبي من الشعور و الحس ويخيل إلي أن صور هذا العالم الجميلة الفخمة تتحرك في نفسي فتملؤها حياة جديدة>>[1] .

فهذان النصان النثريان اللذان أوردهما الشابي، يبيّنان، بوضوح أثر الأدب الغربي الرومانتيكي في نفسه، كما يبيّنان الأثر الذي تركه (أدب الطبيعة)، على وجه الخصوص، كما بيّن النصان السابقان، من جهة اخرى الطبيعة التي تجتدب الشابي، وتستهوي قلبه، كما اشرنا إلى ذلك في التمهيد.

ويفصح الشابي عن كل ماسبق، بقوله، مخاطبا الحاضرين [2] :

<<تلك كلمة لامرتين، وهذه كلمة جيتي، ولست بمستحلفكم مرة أخرى أي النظرتين إلى الطبيعة أعمق ؟ وهل عندنا في العربية مثل هاته الروح القوية الشاعرة ؟ ولكن أقول كلمتي، وهي أنّ النظرة العربية إلى الطبيعة بسيطة إزاء هذه مهما بلغت من العمق و الشعور... وشعراء العربية لم يشعروا بتيار الحياة المتدفق في قلب الطبيعة إلا إحساسا بسيطا سادجا خاليا من يقظة الحس ونشوة الخيال >> [3] .

ونجده يصّر على إبراز الفروق الجوهرية بين نظرة الشاعر العربي إلى الطبيعة، وبين نظرة الشاعر الغربي، قائلا :

---

1 ـــــ المصدر نفسه ص 68

2 ـــــ كان حديث الشابي موجها إلى ذلك الجمع الذي حضر محاضرته (الخيال الشعري عند العرب). وقد اشرنا إلى هذه المحاضرة في مقدمة هذا البحث.

3 ـــــ الخيال الشعري عند العرب ص 67

<<... أسألكم بحق ماتقدسون في هذا العالم، هل تجدون بين شعراء العربية هذه الروح القويّة المضطرمة الشاعرة، هذه الروح [الروح الغربية] التي تنظر إلى الطبيعة كلّها ككائن حيّ يترنم بوحي السماء>> [1] .

وهذا الإلحاح على إبراز هذه الفروق يعطينا فكرة لا تقبل التأويل عن قناعة الشابي بما يقول، ويكتب.

ويمكن أن نختصر هذه الفروق في الرسم الآتي :

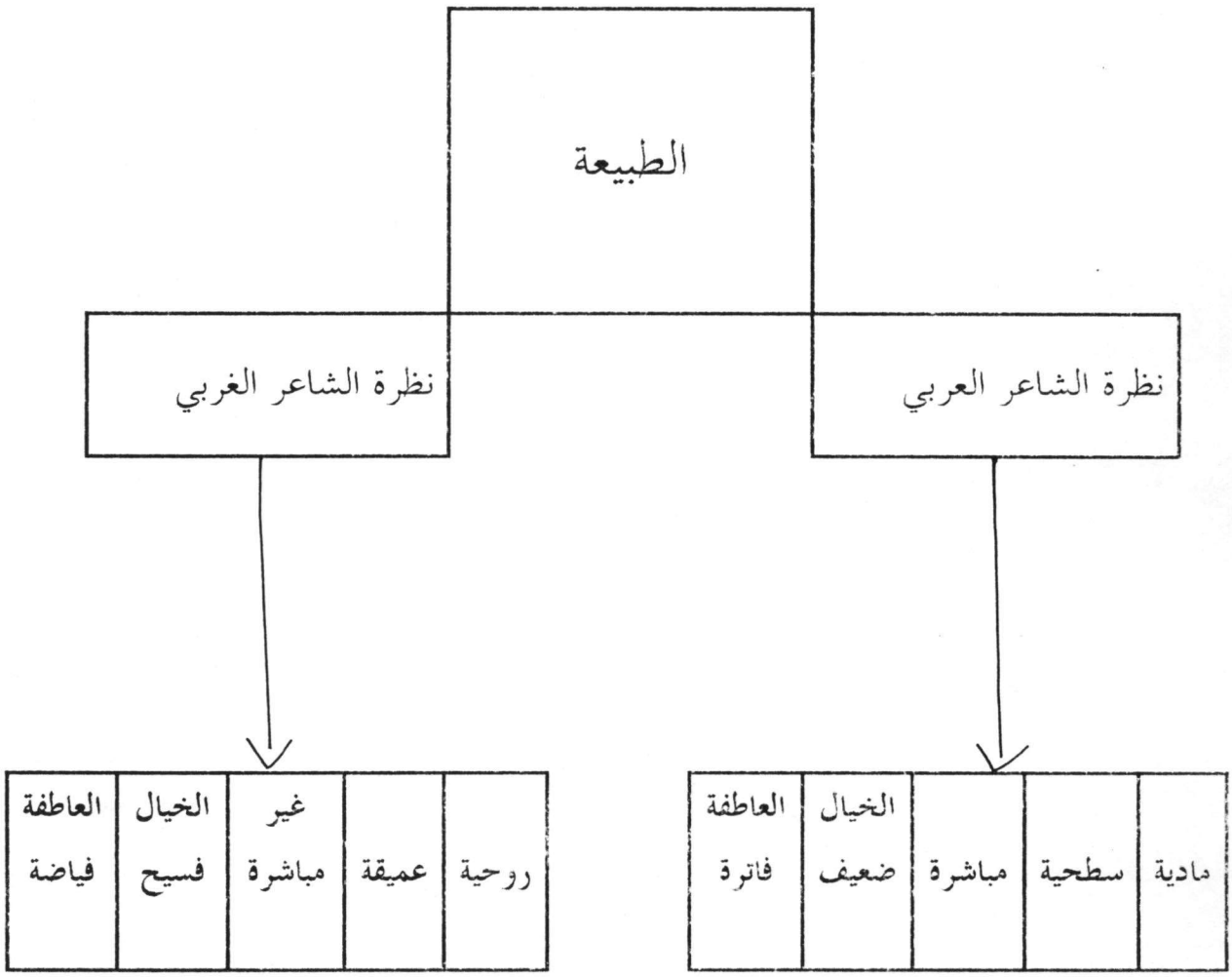

---

[1] _____المصدر نفسه ص 65

فهذا الرسم بيّن مظاهر الاختلاف بين نظرة الشاعر العربي، و بين نظرة الشاعر الغربي ذي النزعة الرومانتيكية، شعرا، ونثرا، كما يراها الشابي. وله إشارات أخرى إلى بعض الكتب التي طالعها، وكان لها أثر في نفسه. ومنها كتاب لامرتين (رفائيل) الذي كتبه نثرا. ويتحدّث الشابي عن هذا الكتاب، حديث المعجب، قائلا :

«كان الوقت أصيلا و الشمس تلقي على أشجار البلغدير[من أجمل الحدائق الموجودة في تونس إلى الآن] حلة ذهبية ساحرة، وفي المساء غيوم ملونة زاهية، وأنا ورفيق لي جالسان إلى مقعد من مقاعد البلغدير... وفي يميني كتاب (رفائيل) الذي رسم فيه لامرتين صورا من شبابه الزاخر بالعواطف و الأحلام» [1].

وإذا كان تأثر الشابي بالأدب الغربي قد بلغ هذا المدى الذي عرفناه من خلال النصوص النثرية السابقة. فهل كان هذا التأثر قد بلغ المدى نفسه – على مستوى النصوص الشعرية ؟ .

إنّ الذي أمكن أن نلاحظه، بيسّر، من خلال قصائد ديوان أبي قاسم الشابي (أغاني الحياة) أن بعض مظاهر التأثر بارزة.

وقد أصبحت حقيقة أدبية عند كثير من النقاد. وقد ركز بعض هؤلاء النقاد على تأثير لامرتين في شعر الشابي. ومنهم محمد الحليوي (رحمه الله). إذ يقول : «فالشابي كالشاعر لامرتين يذكر الغابات و الأنهار و الجبال والأحجار والغدو والآصال, يذكر كل هذا وأكثر من هذا» [2] .

---

[1] ـــــ أبو القاسم الشابي، مذكرات الشابي. المذكرة التاسعة، الخميس ، جانفي 1930 ، ص40

[2] ـــــــ مع الشابي. ص 74

ويقول، مؤكدا هذا التأثير :

<<فالشابي إذا تكلم على الطبيعة تكلم عليها كما يتكلم لامرتين. فالصبح يغنّي، والريح تغنّي، و النسيم يغنى، والربيع يمشي على الزهر، والربى تحلم، والصبا ترقص، والنور يتهادى، والزهر يتمطّى، والسواقي تهمس...>> [1] .

ويبدو أنّ محمد الحليوي يشير في النص السابق إلى قصيدة الشابي (من أغاني الرعاة). فهي القصيدة التي عبّر فيها الشابي عن المعاني نفسها التي وردت في النص السابق. وتوضيحا لذلك، نقتطف بعض أبيات هذه القصيدة. ويستوقفنا منها، بصفة خاصة، قوله :

أقبل الصبح يغنـــي للحيـــاة الناعسـه

والربى تحلم في ظل الغصون المائسـه

والصّبا ترقص أوراقها الزهـور اليابسـه

وتهادى النور في تلك الفجاج الدامسه

* * *

أقبل الصبح جميـــلا يملأ الأفْـق بهـاه

فتمطّى الزهر، والطـير، وأمواج الميـاه

قد أفاق العالم الحيّ، وغنّـى للحيـــاة [2]

---

[1] _____ المرجع نفسه. ص 79

[2] _____ الديوان ، ص ص 216 - 217

وهذه المعاني، والألفاظ اللتان وردتا في الأبيات السابقة تتكرر في كثير من قصائد الشابي. ولعلّ هذا السبب هو الذّي جعل محمد الحليوي يرجح أثر لامرتين في نفس الشابي على بقية العوامل الآخرى. وهذا مايتبيّن من قوله :

<<إنّه وإنكان فقيدنا العزيز يعزو هذا الانقلاب إلى (عين دراهم) [تقع شمال تونس] حيث جمال الطبيعة ذا أثر في تلوين نفسه فإني أميل إلى أنّ أثر لامرتين في عقله الباطن لايقل عن المؤثر الذي يذكره. فقد قرأ الشابي كل ما ترجم للامرتين وخصوصا كتاب (رفائيل) الذي كان شاعرنا يعجب به ويعيد قرائته المرة بعد المرة>> [1] .

وممّا يؤكد هذا الأثر أن الشابي لم يعارض رأيا من آراء الأدباء الغربيين في الطبيعة، ولم يتحدث عن آراء لامرتين حديثا هادئا يوحي بأنه غير معجب به بل إن الشابي لم يجهد فكره في مناقشة هذه الآراء مناقشة فكرية موضوعية. الأمر الذي جعله يتبنى هذه الآراء، جملة و تفصيلا، ويدافع عنها بحماس شديد. وكأنها من بنات أفكاره، أو كأنّها حقائق أزلية. ومقابل هذا، فقد تراءى له أن الأدب العربي القديم، بوجه خاص، مادي، وسطحي في نظرته إلى الطبيعة . ولم يقف الشابي عند هذا الحدّ من المبالغة، ولكنّه يقرّر أنّ:

<<... الصوت الغربي هو لحنان مزدوجان في آن واحد، لحن يتصل بأقصى قرار في النفس، ولحن متصل بجوهر الشيئ، وصميمه. أمّا الصوت العربي فليس مصدره النفس ولا جوهر الشيئ ولكن مصدره الشكل واللون والوضع، وشتان مابين القشرة و اللباب>> [2] .

---

1 _____المرجع السابق . ص 95

2 _____الخيال الشعري عند العرب . ص 113

وهكذا يتضح أنّ ظاهرة إعجاب أبي القاسم الشابي بالغرب –روحا، وأدبا– بارزة بروزا واضحا.

ذلك أن الحكم على الروح، والأدب العربيين بهذه الأحكام العامة، والذاتية ، فيه كثير من المبالغة، والتسرع، والإجحاف، فضلا عن كونه يسئ إلى أدب الأمّة العربية، وثقافتها، وحضارتها الضاربة في أعماق التاريخ. والشابي أحد أبناء هذه الأمّة، وثقافته الأدبية، والشعرية جزء لايتجزأ من هذه الثقافة.

وإذا كان التأثر، و التأثير أمرا طبيعيا في الحياة، وسنّة كونية فيها، فلا شك في أن التأثر الذي يصل حد الإعتقاد الراسخ شيئ غير مستحسن، لأنه يشوه مظاهر الأصالة، ويقضي على عنصر الإبتكار، وقد يُربك سنّة التطور في الإبداع الأدبي. وشتان بين من يتأثر بالأدب الغربي، وبين من يتأثر بالروح الغربية. الأول مقلّد. التقليد مرحلة من مراحل حياته الفنية. قد تنتهي بالنضج الفني، والتجربة، والمِران. أما الثاني، فقد يصبح أسير تلك الروح، غير قادر على الخلق والإبداع. وهذا لايعني أن أبا القاسم الشابي كان أسير الروح الغربية، في كل شيئ.

ذلك أن مظاهر الأصالة و الابتكار في شعره أمر لايمكن تجاهله. ولعلّ أبرز مظاهر هذه الأصالة، وهذا الابتكار أنه «كان يرى الإبداع الشعري ثمرة مباشرة لنشوة مستغرقة في الجمال، وبخاصة جمال الطبيعة» [1].

---

[1] _____إحسان عباس، (لحظة الإبداع عند الشابي) نقلا عن كتاب (دراسات عن الشابي). اعداد أبو القاسم محمد كرو. ص 238

ويمكن أن نقول : إنّ التأثير الذي أحدثه الشابي في الشعر العربي الحديث، والمعاصر يعدّ مظهرا آخر من مظاهر الابتكار، ومقياسا من المقاييس التي يقاس بها الأدب –شعرا ونثرا–، و<<ربما كان من المقاييس التي يستدّل بها على عظمة ذلك الأديب [أو الشاعر]، وعلو مكانته في ديوان الأدب>> [1] .

ويبدو أن كثيرا من الآثار الأدبية لم تخلد إلا لكون أصحابها استطاعوا، بفضل موهبتهم أن يتجاوزوا مراحل التأثر إلى مراحل التأثير. وهذا ينطبق في نظرنا –على الشابي، لأنه استطاع أن يؤثر في كثير من الشعراء. ومايزال المعجبون بشعره كثرا رغم انقضاء أكثر من نصف قرن على وفاته، ورغم أنّ الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية التي عاش فيها الشابي تختلف عن الظروف التي عاش فيها هؤلاء الشعراء، اختلافا كبيرا.

ثانيا – البيئة

واقصد بالبيئة، الوسط الذي نشأ فيه الشابي، أو تعرّف إليه من خلال أسفاره ، أو أقام فيه للراحة، والإستشفاء [2] ، فقد عرف الشابي الطبيعة، صحراء، وغابات، وهضابا، وسهولا، وتعرّف إلى كل هذه الأجواء، عن قرب، واكتحلت عيناه بكل هذه المشاهد، <<... فمضى الشاعر يجوب صيفا وشتاء تونس الجميلة ذات المصائف الفاتنة و المشاتي الرائعة. فمن بلاد (الجريد) إلى (زغوان) ومن (عين الدراهم) إلى (المشروحة) [منطقة غابية من ولاية سوق أهراس بالجزائر]. وقد عاش شاعرنا ثلاث

---

[1] _____محمد الحلوي ، مع الشابي . ص 104

[2] _____سنشير إلى هذه المسألة في الفصل الثاني.

سنوات وحيدا بين أشجارها وأنهارها. يتغنّى مع الأطيار بحبّه ويناجي النجوم بأمانيه>> [1] . و<<في هذه الفترة أخرج الشابي أجمل قصائده الخالدة في وصف الطبيعة و الجمال، وسحر الوجود وحب الحياة>> [2] . ويرى أبو القاسم محمد كرو أنّ الطبيعة الصحراوية كان لها -أيضا- أثر في شاعرية أبي القاسم الشابي، <<والتي حدثنا عنها الشاعر بشوق بالغ وحنين فياض في قصيدته (الجنة الضائعة)>> [3]. ويظهر أنّ الحكم على شاعرية الشابي لايمكن أن يكون من خلال قصيدة واحدة- كما ذهب إلى ذلك أبوقاسم محمد كرو في النص السابق -، ولايمكن أن يكون مقياسا صحيحا، بالإضافة إلى أن قصيدة (الجنة الضائعة) لايشير فيها الشابي إشارة واضحة إلى الطبيعة الصحراوية، كما أن عناصر الطبيعة التي ذكرها الشابي في هذه القصيدة لاتنتمي إلى عناصر الطبيعة الصحراوية، كالصنوبر، والمروج، والصخور، وغيرها.

ومع ذلك يحرص أبو قاسم محمد كرو على تأكيد أثر الطبيعة المحلية في تونس، في شاعرية الشابي. وهو مقتنع بذلك -على مايبدو- إذ يقول :

<< لم يختزن الشابي صور الطبيعة في ذاكرته من وصفيات المجالس والأحاديث العابرة ولااستوعبها من مطالعات الكتب الأدبية ودواوين الشعر، كما فعل كثير من كتابنا وشعرائنا المعاصرين، بل إنّه كان يجوب تونس مع الربيع والخريف والصيف والشتاء، فيملأ عينيه بمشاهد الطبيعة الساحرة>> [4] .

---

1 _____ أبوالقاسم محمد كرو، الشابي : حياته وشعره ص 42

2 _____ المرجع نفسه ص 37

3 _____ المرجع نفسه و الصفحة نفسها

4 _____ أبوالقاسم محمد كرو، كفاح الشابي. سلسلة كتاب(البعث) ب.ت ص 83

ويظهر مما جاء في النص السابق أن أبا القاسم محمد كرو قد بالغ فيما يتعلق بأثر الطبيعة المحلية في شاعرية الشابي، لأنه أهمل اثر الأدب الغربي اهمالا تاما، زيادة على أنّ الشابي لايذكر أسماء الأماكن التي شاهدها، أوتغنى بها في شعره. وهذه ظاهرة بارزة في شعره، خلافا لما عرف عن الشعر العربي القديم[1] . أما محمد الفاضل بن عاشور (رحمه الله)، فيرى، رأيا آخر يخالف رأي أبي القاسم محمد كرو. إذ يذهب إلى حد اهمال أثر الطبيعة المحلية، اهمالا، كليّا.

وهذا مايتأكد من قوله :

<<فالغاب والضباب والراعى النافخ في نايه والثلج كلما أصور لم يعرفها الشابي ولم يعش في دائرتها، ومع ذلك كانت أكثر الألفاظ دورانا في شعره.>> [2] .

ويبدو أن ما أورده الكاتب في النص السابق لا يخلو من المبالغة–أيضا–، ذلك أنّ الشابي، وإن كان قد تأثر بنظرة الأدب الغربي إلى الطبيعة، من خلال مطالعته للأدب الغربي المترجم، كما اشرنا إلى ذلك في بداية هذا الفصل، فإن الذي لاشك فيه أن الشابي قد استمد جذور هذه النظرة من الطبيعة المحلية في تونس، والجزائر –أيضا [3] –. ولا غرابة في ذلك. ففي تونس

---

[1] _____سلمى الخصراء الجيوسي، (أبعاد الزمان والمكان في شعر الشابي) : نقلا عن كتاب (دراسات عن الشابي)، اعداد : أبوالقاسم محمد كرو، ص 213

[2] _____الحركة الأدبية و الفكرية في تونس : الدار التونسية للنشر، النشرة الثالثة، 1983 ص 195

[3] _____اشار أبو القاسم محمد كرو في أحد نصوصه التي اوردناها في هذا الفصل أن الشابي أقام ثلاث سنوات في بلدة (المشروحة) بالجزائر،واخرج أجمل القصائد فيها انظر صفحة 45.

والجزائر، من المشاهد الطبيعية الساحرة مايحرك المشاعر، ويبعث على الإبداع. وقد تُضَاهي هذه المشاهدُ تلك التي توجد في بلاد أوروبا. وهذا شيئ بديهي.

فالطبيعة أينما وجدت، هي في عيون الشعراء، وخاصة الرومانتكيين -ومنهم الشابي- رمز الجمال. وهي في عيون كل البشر هبة من الله، وآية بينة من آياته، في كل زمن، وآن. وستظل تلهم الأدباء، كتّابا، وشعراء، وتفجر قرائحهم، صامتة، وحية.

الفصل الثاني

الطبيعة الصامتة

الغاب

ظاهرة العزلة في الغاب

أسباب هذه العزلة

تمثل الصفحات السابقة محاولة لحصر عناصر الطبيعة في شعر أبي القاسم الشابي، وإبرازا للينابيع التي استقى منها آراءه عن الطبيعة. وقد استخلصنا منها بعض النتائج الأوّلية، وخاصة فيما يتعلّق بالمكانة التي أولاها الشابي للغاب، باعتباره إنقطاعا عن حياة الناس في المدينة، وملجأ يفضي به إلى العزلة -كما سنرى -.

الغاب

وإذا كان لابد أن ندرك سبب اهتمام الشابي بالغاب، فمن الطبيعي أن نحاول تحديد مفهوم الغاب في تصوره.

يقول الشابي، معرّفا الغاب :

بيت بنته لي الحياة من الشذى والظل، والأضواء، والأنغام
بيت من السحر الجميل، مشيّد للحب، والأحلام، والإلهام[1]

وغاب. هذا شكله -كما حدّده الشاعر في البيتين السابقين من المرجح أن يكون من إبتكار خياله. ومن خصائص هذا الخيال، نزوعه إلى التجريد [2].

يقول توفيق بكار[*] :

---

[1] الغاب. ص 262

[2] وهذه الظاهرة من ابرز سمات الخيال الرومانتيكي. فالرومانتيكيون يفضلون عالم الخيال على عالم الحقيقة. ولاشك في أن الشابي واحد من هؤلاء. يقول جان جاك روسو -مثلا- <<لو تحولت كل أحلامي إلى حقائق لما اكتفيت بها، بل لظللت اتخيل واحلم لاتقف رغبتي عند حد>>. انظر، محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية. ص 73 .

[*] أستاذ المناهج الأدبية الحديثة بالجامعة التونسية

<< أمّا أن هذا الغاب لايخلو من بعض الطرافة. فهذا لاجدال فيه . وأمّا أنه غاب حقيقي يمكن لك أن تقع عليه في بلادنا [تونس] فهذا مانشك فيه>> [1].

ومهما كان شكل هذا الغاب، فهو - كما بين ذلك البيتان السابقان - شريحة من عالم، تشيع فيه القيم المجرّدة، كالجمال، والأحلام، والإلهام، والأنغام، ويعج بالزهور التي يفوح منها العبير. سِحْره دائم. واخضراره أبدي :

في الغاب سحر رائع متجدّد باق على الأيام، والأعوام [2]

ولعلّ هذا المفهوم المجرد الذي أضفاه الشابي على الغاب آت من مفهومه للشاعر، والشعراء. فالشاعر -في تصوره- هو << ... ذلك الجبّار الذي يرتفع بقلبه فوق البشر، ليتحدث بلغة السماء عن نشوة الروح، وحيرة الفكر التائه بين نواميس العالم، وجمال الوجود>> [3]. والشعراء <<هم أولئك الذين يرتفعون بأرواحهم إلى آفاق فسيحة أرحب، وأسمى من سماء البيئة المحدودة متغزلين بدنيا غريبة رائعة لم تخلقها الحياة إلا في أعماق قلوبهم الملآى ببهاء الكون ومثل الحياة العليا>> [4]

والشعراء عنده هم -أيضا- <<أولئك الذين لايصورون عادات العصر المتغيرة المتحولة بل عادات الحياة الخالدة على الدهر>> [5] . ولكن الذي لايساوره الشك أن الغاب الذي تحدّث عنه الشابي قد استمدّ وجوده من جذور الواقع.

---

[1] _____مشاركة في دراسة أبي القاسم الشابي. حوليات الجامعة التونسية. عدد 2. 1965، ص 216

[2] _____الغاب . ص 262

[3] _____مقال للشابي، أورده محمد الحليوي في كتابه (مع الشابي) ص 68

[4] _____المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[5] _____المرجع نفسه . ص 69

وثمته إشارات شعرية تؤكد ذلك. ونكتفي بذكر بعض الأبيات التي يتحدث فيها الشابي عن بعض عناصر الطبيعة التي تشكل هذا الغاب. ومنها قوله:

ولربّ صبح غائم، متحجب ... في كلة من زعزع، وغمام
تتنفس الدنيا ضبابا هائما ... متدفقا في أفقه المترامي
والريح تخفق في الفضاء، وفي الثرى ... وعلى الجبال الشمّ، والآكام
باكرت فيها الغاب موهون القوى ... متخادل الخطوات والأقدام
وجلست تحت السنديانة، واجما ... أرنو إلى الأفق الكئيب أمامي
فأرى المباني في الضباب، كأنها ... فكر بأرض الشك الإبهام[1]

وقوله :

ولكم مساء حالم، متوشّح ... بالظل، والضوء الحزين أمامي
قد سرت في غابي كفكر هائم ... في نشوة الأحلام والإلهام
شعري، وأفكاري، وكل مشاعري ... منشورة للنور، والأنسام
والأفق يزخر بالأشعة والشذى ... والأرض بالأعشاب والأكمام
والغاب ساج، والحياة مصيخة ... والأفق، والشفق، الجميل أمامي[2]

فقد بيّنت الأبيات السابقة العناصر التي تكوّن الغاب الذي تحدّث عنه الشاعر. وقد ذكر منها، الغمام، والافق، والريح، والفضاء، والثري، والجبال، والأرض، والأعشاب ...الخ.

---

[1] _____ الغاب. ص 264

[2] _____ القصيدة نفسها . ص ص 264-65

غير أنّ الـذي يستوقفنا في الأبيـات السـابقة، علـى وجـه الخصـوص قـول الشابي:

قد سرت في غابي، كفكر هائم في نشوة الأحلام والإلهام.

وهذا الحرص من الشابي، على أن تكون للغاب هذه الخصوصية، كما تبيّن ذلك، كلمة (غابي)، وهذا التأكيد على إبراز الملامح العامة التي تميز هـذا الغـاب له دلالة في فكر الشاعر. وهذا ماجعل الشـابي يخصـص لـه قصيـدة مسـتقلة هـي قصيدة (الغاب) [1]، وسما به من مجرد غـاب، عـادّي يمكـن أن نعـثر عليـه في العـالم الأرضي، إلى عالم، آخر، غير عالمنا.

فهو يرتسم في ذهنه، آية، في الروعة، والجمال. وهو دنيـا مليئـة بالمشـاعر، والأحلام.

ويبدو أن أهمّ مافي هذا الغاب أن الشابي، ينسى، فيه (دنيا النـاس) وينفـرد بذاته، بعيدا عن كلّ ما ينغص عليه حياته.

ويبدو ـ أيضا ـ أن هذا المفهوم الـذي أعطـاه الشـابي للغـاب هـو الـذي جعـل توفيق بكار يرى أن الشابي لم يهتد إلى مفهوم الغاب كما فهمه النّاس [2] ، أو كما

---

[1] أنظر، الديوان، ص 262

[2] إن مفهوم (الغاب)، في صيغة التأنيث كما هو شائع في دهنية سـكان المنـاطق الجبليـة هو (الوسط الطبيعي الذي يحتوي على كثـير مـن النبـات، والحيـوان ، والبعيـد عـن التجمعـات السكانية(أما كلمة (غابة). فهي في تصور سكان الصحراء، تعني (الواحة) هذا ماأفادنا به أحـد أبناء الصحراء التونسية، وآخر من مدينة (ورقلة) من الصحراء الجزائرية.

فهمه الرومانتيكيون [1]. مع ذلك يلّح الشابي على إبراز هذا الغاب في الصورة التي تحبّب له العزلة في أحضانه. ومهما كانت الصورة التي يريد الشابي أن تجسده فيه. فهو الغاب الذي يحقق له جملة من الأهداف والمطامح.

ظاهرة العزلة في الغاب

ولعل أبرز الأهداف التي يسعى الشابي إلى تحقيقها أن يظل قريبا من هذا الغاب. وهو مقتنع بذلك -على مايبدو-، ويحاول أن يقنع غيره بضرورة العيش في رحاب هذا الغاب، مادام هذا الغاب يحقق له، ولغيره السعادة. ويمكن أن نستنتج هذه الأفكار من قوله :

وإن أردت قضاء العيش في دعة ... شعرية لايغشي صفوها ندم

فاترك إلى الناس دنياهم وضجتهم ... ومابنوا لنظام العيش أورسموا

واجعل حياتك دوحا مزهرا نضرا ... في عزلة الغاب ينمو ثم ينعدم

واجعل لياليك أحلاما مغردة ... إن الحياة وماتدوي به حلم[2]

---

[1] _____أما مفهوم (الغاب) عند الرومانتيكيين فيمكن أن نستنتجه من قول الشاعر الرومانتيكي (بيرون) : <<... في الغابة العذراء متعة، وفي الضفاف المنعزلة سحر، فهنا آنس حيث لا دخيل من الناس... >>. انظر، محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية. ص 170 ويمكن أن نحصر هذا المفهوم في النقاط الآتية :

1) الطبيعة العذراء التي لم تتدخل يد الإنسان في صنعها.

2) الطبيعة البعيدة عن التجمعات السكانية، و الناس.

3) الطبيعة المنعزلة

4) الطبيعة ذات الأدغال الكثيفة

[2] _____السعادة . ص 214.

فالشابي يحاول أن يقنعنا بضرورة الابتعاد عن دنيا النّاس، ويدلنا على حياة أخرى، تراءت له، أكثر استجابة لسعادة الإنسان، وخاصة إذا كان هذا الإنسان شاعرا، تميل نفسه إلى الوحدة والإنفراد -كما يتبيّن لنا ذلك مع الشابي، لاحقا. وهذا «مزاج مميز لتلك الشخصيات التي تجنح إلى المثالية وبساطة الحياة وطهرها» [1].

ويبدو أن الشابي لايقتنع بهذه العزلة التي لاتعدُّ وأن تكون انتقالا من بيئة اجتماعية هي المدينة إلى وسط طبيعي هو الغاب. فهذا ليس كل ما يتمنى، ولكنه يريد لهذه العزلة أن تكون محطة جديدة، يُعيد من خلالها تشكيل الحياة وَفْق تصوره لها.

أسباب هذه العزلة

ومهما تكن الأسباب التي دفعت الشابيّ إلى العزلة، فهي تعبر عن مظهر آخر من مظاهر انشغاله بالغاب، يتمثل في هذه المكانة التي يحتلها، والتي تصل إلى درجة (التقديس). وفي المقابل فإنّ مكانة المدينة تصبح سيئة إلى درجة (التدنيس). وانطلاقا من هذه الثنائية (الغاب المقدّس)، و(المدينة المدنّسة)، ينظر الشابي إلى الغاب، والمدينة. وعلى هذا الأساس نحاول أن نتتبع نظرته إليهما. ويمكن من خلال معايشتنا لشعره أن نرجع أسباب هذه العزلة إلى الدوافع الآتية :

ا) النفور من المدينة

ب) البحث عن وسط شعري

جـ) التأمل في الحياة والموت

د) المرض

---

[1] _____ خليفة محمد التليسي، الشابي و جبران ، ص ص 76-77

ا) النفور من المدينة

آثر الشابي الغاب على المدينة، واعتبرها الوسط الموبوء الذي يرمز إلى كل ماهو منحط. فهي،بالإضافة إلى هذا الصخب ، والضجيج اللذين يميزان الحياة فيها، مصدرَ كل فساد، ومنبع كل رذيلة. ولذلك فقد أبرزها الشابي في أسوأ صورة، أقل مايقال عنها أنها صورة، تثير الإشمئزاز، وتكرّه كل من يود أن تكون مستقرا له. وكأنّها دعوة ضمنية للإبتعاد عنها إلى الغاب.

ولعل هذا مايشير إليه الشابي، بقوله :

ماذا أود من المدينة، وهي غارقة بمـوار الـــــدم المهـــدور؟
ماذا أود من المدينـــة، وهـــي لا ترثى لصوت تفجع الموتـور؟
ماذا أود من المدينـــة، وهـــي لا تعنو لغير الظـالم الشـــرير؟
ماذا أود من المدينة، وهي مـرتاد لكـل دعـــارة وفجـــور[1] ؟

فصورة المدينـــة، بهـذا الشـكل الـذي رسمـه بهـا الشـاعر ترفضهـا الشـرائع السماوية، والأعراف البشرية. وهذا الامتعاض الذي أظهـره الشـابي إزاء مـايجري في المدينة، من مظاهر التفسخ، والإنحلال هو في حقيقـة الأمـر موقـف صريـح من المدنية الحديثة. وقد عبّر الشابي عن هذا الموقف، نثرا، بقوله، <<... إن المدينة الحديثة ماتفشت إلا وتفشى معها الفسق والفجور، وتوافرت أسباب اللهو والمجون>> [2].

ويبدو أن المدينـة الحديثة رمـز مـن رمـوز هـذه المدنيـة. ولذلـك لايكتفـي الشابي بأن يرسم المدينة بهذا الشكل الذي أشار إليه في الأبيات السابقة بل يصبح كل ما يدور على ألسنة أهلها (لغو وإفك و سخافة وهراء).

---

[1] ـــــــ مناجاة عصفور، ص 106

[2] ـــــــ الخيال الشعري عند العرب. ص 92

أما ماينبعث من أعماق الغاب (خرير السواقي وخفق الصدى وغناء الطيور وحفيف الغصون وهمس النسيم)، فيحبّب إلى الشاعر العزلة في الغاب، وينسيه كل ما يدور في المدينة :

وبعيدا عن المدينة والناس ... بعيدا عن لغو تلك النوادي
فهو من معدن السخافة والإفك ... ومن ذلك الهواء العادي
أين هو من خدير ساقية الوادي ... وخفق الصدى، وشدو الشادي
وحفيف الغصون، نمقها الظلّ ... وهمس النسيم للأوراد [1] .؟

وفي الغاب، يجدد الشاعر حياته، ويطّهر مشاعره، ويحلق في عالم الخيال، ويبتعد عن تلك الحياة الصاخبة التي يحياها الناس ، ويستمتع بتلك المشاهد الطبيعية الساحرة. وهذا مايبينه الشابي، بقوله:

في الغاب، في الغاب الحبيب، وإنه ... حَرَم الطبيعة والجمال السامي
طهّرت في نار الجحيم مشاعري ... ولقيت في دنيا الخيال سلامي
ونسيت دنيا الناس فهي سخافة ... سَكْرَى من الأوهام والآثام!
وقبست من عطف الوجود وحبه ... وجماله قبسا أضاء ظلامي
فرأيت ألوان الحياة نضيرة ... كنضارة الزهر الجميل النامي
ووجدت سحر الكون أسمى عنصرا ... وأجلّ من حزني ومن آلامي[2]

---

[1] _____ أحلام شاعر. ص 216

[2] _____ الغاب ، ص 265

فحرارة العاطفة وقوة المشاعر في هذه الأبيات، فيما يتعلق بحديث الشاعر عن الغاب، والمدينة -حبا و كراهية- تنطبق على كل ماجاء في شعره.

ويمكن -أيضا- أن نرجع أسباب نفور أبي القاسم الشابي من المدينة، إلى جانب الأسباب السابقة. إلى عاملين، هما :

- **العامل الأول** : ويكمن في أن خروج الشابي من مسقط رأسه إلى العاصمة التونسية، مبكرا، للدراسة [1]، لم يكن عن طواعية. فقد ظل الشابي يحن إلى مرابع الطفولة. ولا ريب في أن ذاكرته قد اختزنت مشاهد طبيعية جميلة من مشاهد تلك الواحات المنتشرة في الصحراء. شأنه في ذلك شأن كل طفل، تربّى، وترعرع في أحضان بلدته، ثم وجد نفسه، لسبب من الأسباب، يعيش في المدينة. يحيا حياة غير تلك التي ألفها، ويعيش قيما جديدة، لم يستطيع أن يتكيف معها. هذه المعاني هي التي يشير إليها الشابي، بقوله :

وأنا الذي سكن المدينة مكرها ... ومشى إلى الآتي بقلب دام
يصغي إلى الدنيا السخيفة راغما ... ويعيش مثل الناس بالأوهام
وأنا الذي يحيا بأرض قفرة ... مدحوة، للشك، والآلام ...
هجمت بي الدنيا على أهوالها ... وخضمها الرحب، العميق الطامي
من غير إندار فأحمل عدتي ... وأخوضها كالسابح العوام [2]

---

[1] ـــــــ خرج الشابي من مسقط رأسه (الشابية)، إحدى ضواحي مدينة توزرر من الصحراء التونسية إلى تونس العاصمة. وكان عمره اثنى عشر عاما حين أرسله والده للدراسة. للتوسع، انظر، أبو القاسم محمد كرو . الشابي : حياته وشعره، ص 37.

[2] ـــــــ مناجاة عصفور ، ص 170

ولعل أهم ماكان يحس به الشاعر تجاه المدينة، هذا الانقلاب المفاجئ الذي لاشك في أنه زعزع كيانه. فَمِنْ سكون الواحة وهدوئها إلى ضجيج المدينة وصخبها. ومن حُدَاء الإبِل إلى قرقعات العربات. وهذا الشعور هو إحساس كل من عاش تجربة مثل تجربة الشابي.

يقول إحسان عبّاس :

<<إن أول مايحس به الريفي تجاه المدينة هو النفور من الضجيج الكبير والازدحام والتدافع ... والإحساس بالحيرة والخوف إزاء أدوات المواصلات وتعقيدها >> [1] .

وهذا الانقلاب المفاجئ الذي أحدثته حياة المدينة في نفس الشابي هو الذي جعله يعود إلى قريته (الشابية).وهذه العودة رفض صريح لحياة المدينة.

يقول محمد الحليوي :

<< وهكذا إبتعد أبو القاسم عن المدينة وعاش في قريته الشابية، على تخوم الصحراء حيث يمتد النخيل وذهب الرمال والآصال، تحيط به لا نهاية الأفق ولانهاية الصحراء له من أفكاره وأحلامه ومثله عوالم يحيا فيها بالتأمل والتفكير ...>> [2] .

وهكذا نرى أن ظاهرة العزلة في الغاب هي الحلم الذي ظل يراود الشابي، ويشغل تفكيره. وقد تجلى ذلك من خلال تلك الأبيات التي اوردناها في الصفحات السابقة.

---

[1] _____ اتجاهات الشعر العربي المعاصر، سلسلة (عالم المعرفة)، المجلس الوطني للثقافة والآداب. الكويت، 1978، ص 112

[2] _____ مع الشابي، ص 82.

العامل الثاني :ويتمثل في أن هذا الاحساس بالكراهية إزاء مايجري في المدينة، دعوة صريحة للعودة إلى الغاب.

<<هروبا من حمأة الحياة المادية، وليعيش في دنيا خاصة، من صنع خياله ... ويحاول جاهدا أن يحصن فرديته من الضياع، وأن يدعم شخصيته المستقلة>> [1].

فالعيش في أحضان الغاب -إذن- هو أمل الشابي. وهذه الغاية السامية - في تصوره- لاتتحقق إلاّ بالانسحاب من المدينة، والانقطاع عن كل مايربطه بحياة الناس. وهذا مايلخصه قوله :

وأود أن أحيا بفكرة شاعر فأرى الوجود يضيق عن أحلامي
إلا إذا قطعت أسبابي مع الدنيا وعشت لوحدتي وإنفرادي
في الغاب، في الجبل البعيد عن الورى حيث الطبيعة والجمال السامي
وأعيش عيشة زاهد متنسك ماإن تدنسه الحياة بذام
هجر الجماعة للجبال تورعا عنها وعن بطش الحياة الدامي
تمشي حواليه الحياة كأنها الحلم الجميل خفيفة الأقدام[2]

ومما سبق يتضح أن الغاب ، الذي يستهوي قلب الشاعر هو ذلك الّذي يبعده عن المدينة، ويحرّره من القيود المادية المتمثلة في مآرب العيش، وشواغل الحياة.

---

[1] أبو القاسم محمدو كرو، نقلا عن : د. نعمات أحمد فؤاد، أبو القاسم الشابي سلسلة (شعب وشاعر). الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، الطبعة الثالثة، 1977. ص 124

[2] أحلام شاعر. ص 169

وهو -ايضا- ذلك الغاب الـذي يمنـح الشـاعر هـذا <<الحلم الرومانسـي المـأثور، التفرد، والإعتزال>> [1]، أو(التفـرد، والاعـتزال)، أو (الوحـدة، والانفـراد)، كمـا يسمّيها الشابي في الأبيات الآتية ، هي أمنية الرومانتيكيين [2] .

يقول الشابي، متمنيا أن يقضي عمره كله في (الجبال، وفي الغابات)، بعيدا عن الناس وعن كل ما يصرفه عن هذه العزلة المحبّبة إلى نفسه :

ليت لي أن أعيش فـي هذه الدنيـا سعيـدا بوحدتي وانفرادي
أصرف العمر في الجبال وفي الغابـات بين الصنوبـر المّيـاد
ليس لي من شواغل العيش مايصرف نفسي عن استماع فؤادي[3]

ومع أن (التفرد والإعتزال)، أو (الوحدة والإنفـراد) يظـلان أمنيـة إلا أن الشابي يصر على تحقيق هذا الحلم الرومانسي، ويبرر هذا الإصـرار، بهـذا الواقع الإجتماعي الذي لم يكن يلبي في نفسه الحياة المثلى التي ينشدها.
وقد لخّص هذا الواقع الذي كان يعيشه الشعب، بقوله :

عمر ميت، وقلب خـواء ودم لا تثيـره الآلام
وحياة تنام في ظلمة الـوادي وتنمـو من فوقهـا الأوهـام
أيّ عيش هذا، وأيّ حياة ؟! (ربّ عيش أخف منه الحمـام[4])

---

1 إيليا الحـاوي، أبـو القاسـم الشـابي : شـاعر الحيـاة والمـوت، بـيروت : دار الكتـاب اللبناني، 1972 ، ص 232.

2 انظر محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية. ص 169 ومابعدها.

3 أحلام شاعر، ص 167

4 إلى الشعب، ص 246

ونفور الشابي من هذا الواقع الاجتماعي الذي بيّنته الأبيات السابقة ناتج عن إحساسه بأنّه لاينتمي إلى قيم وثقافة هذا المجتمع الذي تمثله المدينة.

وهذا إحساس كل إنسان رومانتيكي [1] . فليس غريبا -إذن- أن يحاول الشابي مقاومة هذا الواقع، بالالتجاء إلى الغاب.

ولعل هذا الواقع هو الذي كان وراء هذه الغربة التي كان يشكو منها. وقد أصبحت هذه الحقيقة اقتناعا عند الأستاذ أحمد خالد.

إذ يقول :

<<أيقنت الآن أنّ الشابي يشكو غربة معنوية روحية ينشد من ورائها حياة مثلى يفتقدها في واقعه. وما ذلك إلا البيئة التونسية بسلبياتها التي لم يستطيع الشاعر أن يتكيف معها كل التكيف في الثلاثينات وفي بداية الأربعينات فجنح إلى الهجرة الروحية وتعلقت هبته ببيئة أخرى مثالية يحيا فيها بروحه ويحلّق فيها بخياله>> [2] .

ولاريب في أن البيئة التي (تعلقت بها همة الشاعر) هي الغاب.فقد ظلّ الشابي يرفض واقع المدينة الذي يختصر الحياة في المأكل، والمشرب، وغيرهما من المآرب المادية التي تنتهي بموت الإنسان. وهذا ما عبّر عنه في هذه الرسالة، بقوله :

---

[1] انظر: عز الدين إسماعيل، الفن والإنسان، بيروت، لبنان، دار القلم، الطبعة الأولى، 1974، ص 114.

[2] الغربة في أدب الشابي، نقلا عن كتاب (دراسات عن الشابي)، اعداد أبو القاسم محمد كرو، ص ص 98-99

«إني لاأستطيع أن أعيش في هذا العالم، بعيدا عن مطامح الروح وأحلامها قَنُوعا بهاته الحياة التي تُخْتَصر في هذه الجملة [جيئة وذهابا] [كذا] ومأكل ومشرب [كذا] ثم موت يدحرج الكل في هاوية الفناء وأودية النسيان» [1].

ويبدو من كل ماسبق أن نفور الشابي من المدينة لم يكن دون مبرّر موضوعي -في تصور الشابي-. ذلك أن الواقع الاجتماعي الذي تحدث عنه لم يكن يؤمن -كما بيّن الشابي ذلك، في النص السابق- إلاّ بما هو مادي ومحسوس، و لم يكن يقتنع إلاّ بما هو عياني وملموس.

أمّا الشابي فقد جاء «ليرتفع بالشعور ويسمو بالطبائع» [2].

و«ذهاب الشاعر إذن إلى الغاب إنما يمثل تمسكه بمعطيات الشعور التي يرفضها المجتمع، ورفضه لمنهج العقل الذي يتمسك به هذا المجتمع» [3]

وتمسك الشابي (بمعطيات الشعور) بارز ، في قوله :

عش بالشعور، وللشعور، فإنما ... دنياك كون عواطف وشعور

شِيدَتْ على العطف العميق، وإنها ... لَتَجِفّ لو شِيدَتْ على التفكير[4]

---

[1] _____رسالة للشابي، أوردها شقيق الشاعر، عبد الحميد الشابي، الحياة الثقافية، السنة السادسة، عدد 18، 1981 ، ص 18

[2] _____محمد الحليوي، مع الشابي، ص 81.

[3] _____عز الدين إسماعيل، دراسة وتقديم لـ: ديوان (أغاني الحياة) لأبي القاسم الشابي، ص 97.

[4] _____فكرة الفنان. ص 186.

و(معطيات الشعور) التي يلّح الشابي على أن تكون المنهج الّذي ينبغي أن يسود حياة الناس، هو الّذي يدرك الإنسانُ، بواسطته مظاهر الجمال في الطبيعة. وهذا مايقرّره الشابي، بقوله :

واجعل شعورك في الطبيعة قائدا فهو الخبير بتيهها المسحور [1] .

بل إنّ الشابي يجزم أنّ «مثل هذا الجمال الّذي يستفز كوا من النفس ويهز أدق أعلاق الشعور الذي عرفتم أثره في نفوسكم كلما خلوتم إلى أحلامكم بين أحضان الطبيعة ... هو القسطاس العادل الّذي ينبغي أن توزن فيه نفسيات الأمم وشاعريات الشعوب ليعلم ماهي عليه من قوة وضعف ومن صحة أو فساد... » [2] .

فالنص السابق بيّن، بما لايدع مجالا للتأويل الدرجة التي أصبح الشابي ينظر من خلالها إلى الغاب. وهي نظرة تمثّل الفكر الثابت للشاعر، لأنها لاتتناقض مع النصوص الشعرية التي سبقت الإشارة إليها، والتي سنشير إليها.

ويمكن أن نلاحظ تطور نظرة أبي القاسم الشابي إلى الغاب، من خلال هذه الأبيات التي تستوقفنا أكثر من غيرها، في هذا السياق، لأنها تجسّد هذه النظرة، بوضوح. إذ يقول الشابي على لسان الغاب، مصوّرا مظاهر الجمال في الطبيعة، مبرزا إعجابه بها :

---

[1] _____ القصيدة نفسها. ص 187.

[2] _____ الخيال الشعري عند العرب. ص 45

«المعبد الحـــي المقـــــــدس ههنـا يا كاهـن الأحـزان والآلام»
«فاخلع مسوح الحزن، تحت ظلاله والبس رداء الشعر والأحلام»
«وارفع صلاتك للجمـــال عميـة مشبوبـة بحـرارة الإلهـــــام»
«واصدح بألحان الحيـــــاة جميلـة كجمال هذا العالم البسّام [1]»

أَلَيْسَتْ هذه المشاعر التي عبَّر عنها الشاعر في الأبيـات السـابقة إزاء الغـاب شبيهةً بتلك المشاعر التي تتملّك المؤمن، الوَرِع أثناء صلاتـه، أو أثنـاء ترتيلـه لآى[2] الذكر الحكيم ؟ .

وينبغي ألا نستنكر على الشـابي هـذا التطـور، في نظرتـه إلى الغـاب. فمـا يصرّح به، على مستوى بعض النصوص الشعرية، والنثرية، يؤكـد ذلـك. ومنهـا، قوله ، مصوّرا الغاب كأنّه محراب :

والكون من طهر الحياة كأنما هو معبد والغاب كالمحراب [3]

وقوله مصوّرا (الغاب كأنه رؤيا نبى)، نثرا :

«كنا نسير نحو الغـاب ... وكـان الغـاب يبـدو فـي ضيـاء القمـر كرؤيـا نبـي أو خيـال شاعر» [4] .

---

[1] الغاب، ص ص 265-66

[2] جمع. مفرده: آية. وتجمع أيضا على : آيات.

[3] فلسفة الثعبان المقدس، ص 273

[4] نقلا عن : محمد الحليوي، مع الشابي، ص 75

فهذه النصوص إشارة إلى أنّ الشابي أحاط الغاب بهالة، من التبجيل والتقديس. وتقديس الطبيعة، أو الغاب هو الركن الثالث من أركان رسالته الشعرية [1].

ولا غرابة أن يصبح الغاب مقدّسا عند أبي القاسم الشابي. ففي أحضان الغاب، يتحرّر من سلطان المادة، وقبضة الزمن، ولعلّ هذا مايشير إليه قوله :

روح أنا مسحورة، في عالم فوق الزمان الزاخر الدوّام [2]

ويبدو أنّ أهمّ ما يمكن استخلاصه من كل ما سبق أنّ نظرة الشابي إلى الغاب لم تكن نظرة مادية، وبسيطة بل كانت نظرة روحية، لاتخلو من العمق ، في كثير من القصائد، وخاصة، في قصيدة (الغاب). وهذا مايراه خليفة محمد

التليسي، بقوله :

<<إنّ الشاعر يعبد الطبيعة عبادة عميقة، تصل به إلى درجة الفناء في جمالها الأخّاذ، وتدرك أنّ شعوره بها لم يكن شعورا بسيطا، ولكنّه كان شعورا عميقا لأنّه لايتذوقها في سذاجة المتنعم الذي لا يشغله إلاّ ماتهيئه له من راحة وظل وفير>>[3] .

وقوله :

<<إنّه لشدة حبّه للطبيعة يكاد يذوب في جمالها السرمدي>> [4] .

---

[1] _____ أمّا الركنان، الأوّل، والثاني، فهما تقديس الشعر، وتقديس الحب، أو المرأة ،للتوسع في هذه المسألة، انظر، المرجع نفسه، ص ص 69-70.

[2] _____ الغاب ، ص 265

[3] _____ الشابي وجبران. ص 75

[4] _____ المرجع نفسه. ص 77

فالشابي يحرص على أن تكون للغاب هذه المكانة. ويدعونا إلى اعتبار الغاب مقدّسا. والغاب المقدّس -في فكر الشابي- هو ذلك الّذي يقضي فيه الشاعر حياة روحية، مكتنزة. ومصدر هذا الإنتشاء الروحي هذا الشّذى الّذي ينبعث من أزهار الغاب. وليس صدفة أن يكون للشذى كل هذا التأثير الروحي في نفس الشاعر. فقد بيّن الشابي ذلك في أوّل بيت من أبيات قصيدة (الغاب) الّذي أشرنا إليه في بداية هذا الفصل. وأكّد هذا التأثير في نهاية هذه القصيدة، بقوله :

<<وشذى يضوع مع الأشعة والرؤى في معبد الحقّ الجليل السامي[1] >>

بل إنّ الغاب نفسه لايمكن أن يكون مقدّسا عند الشابي إلاّ إذا كانت الأزهار العَطِرة أحد عناصره الأساسية. ولعلّ هذه النظرة الروحية إلى الغاب هي التي جعلت الشابي يرى أنّ (الظالم المستبد) ليس -فقط- هو ذلك الذي يستعبد الشعوب، ويسفك دماء أبنائها،ولكنّ (الظالم المستبد) هو -أيضا- ذلك الّذي يدنّس الغاب، ويشوّه سِحْرَه، وينزع عنه مظاهر الجمال. وهذا مانستنبطه من قوله، مخاطبا الاستعمار :

ألا أيّها الظالم المستبدّ حبيب الظلام، عدو الحياه
سخرت بأنات شعب ضعيف وكفّك مخضوبة من دماه
وسرت تدنّس سحر الوجود[2] وتبذر شوك الأسى في رباه.[3]

---

[1] الغاب، ص 266

[2] لقد فهمنا عبارة (سحر الوجود) على أنّ الشاعر يقصد بها (سحر الغاب)، بالإضافة إلى المعنى العام الّذي تدل عليه. والّذي أوحى لنا بذلك أنّ الشاعر يقصد بكلمتي (الوجود) و (الكون)، في معظم قصائده (الغاب).

[3] إلى طغاة العالم، ص 260

فَمَنْ يدنّس سحر الغاب، ويشوّه اخضراره، ويطمس معالمه، فيستحيل الغاب أرضا جدباء لاشك في أنّه هو الظالم -حقا- في تصور الشاعر- وفي تصور كل محبي الطبيعة. ويبدو أنّ هذا الإستنتاج أهمّ تأويل أمكن أن نظفر به من خلال تصفحنا للأبيات السابقة. وكأنّ الشابي يريد بهذه النظرة أن يضفي الرومانتيكية على الوجود كلّه [1].

ويظهر أنّ هذه الفكرة كانت الحلم الّذي ظلّ يراود الشاعر، حتى ولو كانت هذه الفكرة لاتتحقق في الواقع. ويبدو أنّ الفكرة عند الشابي أهمّ من الواقع مادام هذا الواقع لا(يرضي فؤاده)، ولا(يسر ضميره) . وهذا ماعبّر عنه الشابي، قائلا :

مافي وجود النّاس من شيئ به يرضي فؤادي أو يسر ضمري [2].

ولعلّ هذه النظرة الموغلة في الرومانتيكية، والتي لاترى الأشياء بميزان العقل هي التي جعلت الشابي ينشد حياة مثلى في المدينة مع أنّ <<الهدف البعيد للشاعر هو تحقيق الإنسجام بينه وبين الحياة >> [3] وهو الهدف ذاته <<الّذي تسعى إليه الجماعة

---

[1] ويبدو أن الشابي كان متأثرا، في ذلك بالأديب الألماني الرومانتيكي (نوفاليس) الّذي كان يقول :<<لابدّ من إضفاء الرومانتيكية على العالم بأسره، فبذلك نكشف المغزى الأصلي للكائنات، مرّة اخرى، بإضفاء مغزى سام على المألوف من الأشياء، بإضافة مظهر غامض على الأشياء العادية>>. انظر، عز الدين إسماعيل، الفن والإنسان. ص 120

[2] مناجاة عصفور. ص 106

[3] عز الدين إسماعيل، الشعر في إطار العصر الثوري. دار القلم. بيروت : لبنان، الطبعة الأولى، 1974. ص 41 .

نفسها إلى تحقيقه وهو أن تكون منسجمة مع ذاتها ومع الحياة >> [1]

ذلك أن <<الشاعر هو أقدر النّاس على تحقيق هذا الانسجام لأنّه أقدر الناس على استيعاب كل ألوان التناقض الماثلة في الحياة ... وهو في شعره لاينكر هذا التناقض بل يبرزه ويؤكده ولكنّه في الوقت نفسه يعمل على تصفيته >>[2].

وهذا الهدف هو الّذي حاول الشابي أن يقوم به. ويتجلّى هذا من خلال بعض المقاييس الفكرية، والأخلاقية، والأدبية التي دعا إليها كما يتضح ذلك في الصفحات الآتية ، غير أنّ نظرته الرومانتيكية إلى الحياة لم تمكّنه من رؤية الحياة رؤيةً موضوعية تحقق الإنسجام مع الذات والحياة.

ولهذا عاد يتحدّث عن الغاب <<ورفعه إلى مستوى الجنّة الأرضية وأضفى عليه رؤية فردوسية >> [3] ؛ لأنّه يرى أنّ <<الغاب هو المكان الوحيد الّذي تحققت له فيه السعادة >> [4] . أمّا ابتعاد الشابي عن الغاب، فيعني ـ عنده ـ << العودة الأليمة إلى تجربة الشقاء والضجر والضيق >> [5] .

---

[1] _____المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[2] _____المرجع نفسه ، ص 40.

[3] _____سلمى الخضراء الجيوسي، أبعاد الزمان والمكان في شعر الشابي، نقلا عن (دراسات عن الشابي)، إعداد : أبو القاسم محمد كرو. ص 222

[4] _____المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[5] _____المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

وممّا سبق يتضح أنّ هذا (الشقاء والضجر والضيق) الّذي كان يعكّر على الشاعر حياته ناتج عن هذا الصراع العنيف الّذي يميّز الحياة في المدينة. وقد أفصح الشابي عن بعض جوانب هذا الصراع، قائلا :

إني أرى ...، فأرى جموعا جمّة ... لكنّها تحيا بلا ألباب
يدوي حواليها الزمان، كأنما ... يدوي حوالي جندل وتراب
وإذا استجابو للزمان تناكروا ... وتراشقوا بالشوك والأحصاب
وقضوا على روح الأخوة بينهم ... جهلا وعاشوا عيشة الأغراب
فَرِحَتْ بهم روح التعاسة والفنا ... ومطامع السلاب والغلاّب
لُعَب تحركها المطامع واللّهى ... وصغائر الأحقاد والآراب[1].

وإذا كان الشابي يرفض هذا الصراع الّذي أشار إليه في الأبيات السابقة. فمن الطبيعي أن تصبح الأماكن المسكونة بالنّاس والشرور» [2] أماكن مدنّسة «ذلك أنّ الشابي كان روحانيا» [3] . ومن الطبيعي ـ أيضا ـ أن يصبح العيش في الغاب مقدّسا. وهذا مايؤكده الشابي، بقوله :

يالها من معيشة في صميم الغاب ... تضحى بين الطيور وتمسي
يالها من معيشة، لم تدنّسها ... نفوس الورى، بخبث ورجس
يالها من معيشة هي في الكون ... غريبة ذات قدس[4]

---

[1] الدنيا الميتة، ص 270

[2] سلمى الخضراء الجيوسي، أبعاد الزمان والمكان في شعر الشابي. ص 219

[3] إيليا الحاوى، أبو قاسم الشابي : شاعر الحياة والموت، ص 58

[4] النبي المجهول. ص ص 148 ـ 49

فالعيش في الغاب يعدّ من أسمى غايات الشاعر كما يدّل على ذلك تكـرار عبارة (يالها من معيشة) التي تكرّرت ثلاث مرّات متتالية بل إنّ الدعوة إلى مثل هذا العيش يعدّ من صميم رسالته في الحياة :

هذه عيشة تقدّسها نفسي وأدعو لمجدها وأنـــادي [1]

ويرى إحسان عبّاس، من جهته أنّ نفور الشاعر العربـي مـن المدينـة إلى الغاب -كما هو الشأن بالنسبة للشابي- إنما هو محاكاة للشعراء الغربيـين [2] . وأمّا عز الدين إسماعيل فيرى أنّ << العودة إلى الغاب ليست مجرّد انتقال من حياة النّاس بكل مافيها من صخب وضجيج إلى حياة الهدوء والاستقرار، فما كانت نفس الشابي بالنفس الهادئة وإن بدا في مظهره وديعا ... فالغابة رمز نفسي، واللجوء إليها يمثل الرغبة الدفينة في العودة إلى رحم الأمّ. ومعطى هذه الرغبة هو معطى شعوري في المكان الأول، يناقض المعطى العقلي>> [3].

والذي أراه أنّ نفور الشابي من المدينة إلى الغاب ـ ومعه كلّ الرومانتيكيين العرب ـ سواء كان هذا النفور داخليّا، نابعا من وعي الشاعر بهذا الفساد الّـذي أصبحت عليه المدينة في العالم العربي، أو كان البـاعث علـى ذلـك عـدم قدرتـه على التكيف مع مشاكل الحياة في المدينة ، فإنّ الشابي لم يكن يدرك إدراكا جيّدا المرحلة التاريخية التي كان يعيشها العالم العربي في تلك الحقبة مـن تاريخـه الحديث، لأنّه (الشابي) لم يكن مقتنعا بما كان يمليـه عليـه الواقـع العيـاني، ولكنّـه كان يحلم بما يمليه عليه خياله.

---

[1] أحلام شاعر. ص 168

[2] اتجاهات (الشعر العربي المعاصر). ص 111

[3] دراسة وتقديم لـ : ديوان (اغاني الحياة) لأبي القاسم الشابي. ص 36

ويبدو أنّ هذا السبب هو الّذي جعل الشابي لا يرى في المدينة إلاّ وجها واحدا هو الوجه الّذي يمثل الفساد، والرذيلة. ويبدو -أيضا- أنّ هذا السّبب نفسه هو الّذي جعله لايتردد في التعبير عن مظاهر الفرحة، والسعادة إذا غادر هذا العالم (الملئ بالآثام و البغضاء) . وهذا مانستنبطه من قوله :

<< أمّا إذا خمدت حياتي، وانقضى عمري، وأخرست المنيّة نائى

<<وخبا لهيب الكون في قلبي الّذي قد عاش مثل الشعلة الحمراء>>

<<فأنا السعيد بأنني متحوّل عن عالم الآثام، والبغضاء >> [1]

وهو في غمرة هذه الفرحة يتمنى أن يوارى جسده التراب في أحضان الغاب، بعد وفاته.

وهذا أبعد مدى يمكن أن يصل إليه انشغال الشاعر بالغاب. وهذا ماتبرزه الأبيات الآتية :

ثمّ تحت الصنوبر، الناضر، الحلو تخط السيول حفرة رمسى

وتظل الطيور تلغو على قبري ويشد والنسيم فوقي بهمس

وتظل الطيور تمشي حوليّ كما كنّ في غضارة أمس[2]

والشاعر الّذي انشغل بالغاب إلى هذا المدى الّذي بيّناه ليس غريبا أن يصبح الغاب مقدّسا في فكره (معبدا ومحرابا). وهكذا أصبحت العلاقة التي تربط الشابي بالغاب، والعلاقة التي تربطه بالمدينة واضحة. ويمكن أن نختصرها في المثلث المتساوي الضلعين الآتي :

---

[1] _____نشيد الجبّار. ص 253

[2] _____النبي المجهول. ص 146

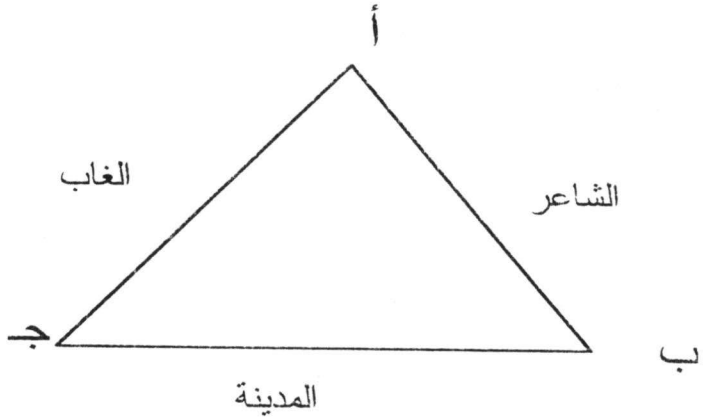

ولكنْ لماذا كان نفور الشابي من المدينة إلى الغاب نفسه. وهو الذي ولد في أحضان الطبيعة الصحروية، وقضى مرح الطفولة بين بساتين واحاتها [1] ؟. فهل يعود ذلك إلى << الغريزة النفسية التي تنفر من استجلاب الكلاسيكية الكامنة في المسميات الصحراوية >> [2]. أم أنّ ذلك يعود إلى أنّ الطبيعة الصحراية لم تكن ترمز إلى معنى جميل في نفسه كما كانت ترمز إليه في نفس الشاعر العربي القديم الّذي <<أقسم أنّ رياح الصحراء تثير الغبار أحبّ إليه من رياح الحضر تهز الأشجار، وتمنّى أن يبيتنّ فيها ليلة واحدة>> [3]. ويبدو من كل ما سبق أن ّ لجوء الشابي إلى الغاب كان تحقيقا لهذا العرف الرومانسي <<الّذي دان به سلوكا في الحياة ومذهبا في الإبداع الأدبي>> [4]. ويتمثل هذا العرف في أنّ <<الغاب هو الموطن النموذجي للبطل الرومانسي عرفا وتقليدا راسخا في الشعر العربي وفي شعر المهجر>>[5] ولعلّ

---

1 _____ أشرنا إلى ذلك في بداية هذا الفصل. انظر ، صفحة 57

2 _____ سلمى الخضراء الجيوسي، أبعاد الزمان والمكان في شعر الشابي، ص 220

3 _____ سيد نوفل، شعر الطبيعة في الأدب العربي. ص 17

4 _____ حسين الواد، في مناهج الدراسات الأدبية. سراش للنشر، 1985، ص 98

5 _____ سلمى الخضراء الجيوسي، أبعاد الزمان والمكان في شعر الشابي. ص 220

هذا السبب هو الّذي جعل شعر الشابي يخلو من المشاهد التي تصوّر الطبيعة الصحراوية.

ب ـ البحث عن وسط شعري

ولَئِن وجد الشابي في الغاب ماجعله يخلو إلى نفسه، وينسى صخب المدينة، وضجيجها ؛ فإنه خرج من المدينة إلى الغاب ـأيضاـ هروبا من ذلك الواقع الإجتماعي الّذي يسوّي فيه النّاسُ بين العمل الفني، ومنه الشعر، وبين الرغبات المادية، فيستوي الفن الرفيع مع مآرب العيش :

الويل في الدنيا التي في شرعتها فأس الطعام كريشة الرسّام[1]

فالشاعر يصوّر نفسه مترفعا عن هذا الواقع الذّي لم يُعْطِ الفنّ مكانة مرموقة، تفوق مكانة الخبز كما يصوّر نفسه مترفعا عن الهدف الذي يسعى إليه هذا الواقع وهو السعي لتلبية رغبات الجسد المادية. ذلك أنّ هدف الشاعر هو أن يعيش حياة فنّية، وجمالية خالصة في الغاب، بعيدا عن المدينة، والنّاس :

وأوّد أن أحيا بفكرة شاعر فأرى الوجود يضيق عن أحلامي
إلا إذا قطّعت أسبابي مع الدنيا وعشت لوحدتي وظلامي
في الغاب، في الجبل البعيد عن الورى حيث الطبيعة والجمال السامي
وأعيش عيشة زاهد متنسك ماإن تدنّسه الحياة بذام[2].

---

1 ـــــ قيود الأحلام. ص 170

2 ـــــ القصيدة نفسها. ص 169

ويؤكد الشابي هذه المعاني في مجموعة من الأبيات، منها قوله :

عيشةً للجمال، والفن، أبغيها بعيدا عن أمّتي وبلادي [1]

وقوله :

فأعيش في غابي حياة كلّها للفنّ للأحلام للإلهام [2]

ويشرح الشابي الفكرة السابقة شرحا نثريا مفصلا، فيقول :

<< إنّ الفنّ الرفيع حقيقة سماوية تنزّل على النّاس من أفكار الجبابرة وأرواحهم ولن نحافظ على سمو عنصرها ونبل غاياتها إلاّ إذا ظلّت بعيدة عن الشعب منزهة عن رغائبه و أهوائه>> [3] .ولعلّ أهمّ مايوفره الغاب للشاعر، بصفة عامة، وللشاعر الرومانتيكي، بصفة خاصة، الخيال، والعاطفة. وهما عنصران أساسيان لاتخلو منهما تجربة شعرية [4] .ويظهر أنّ هذين العنصرين هما اللذان يعنيهما الشابي، بقوله :

في الغاب، دنيا للخيال، والرؤى والشعر، والتفكير، والأحلام[5]

وإذا كان عنصر العاطفة مهمّا في أيّ تجربة فنّية، وفي مقدمتها الشعر، فإنّ عنصر الخيال <<ضروري للإنسان لابد منه ولاغنية عنه. ضروري كالنور والهواء والماء والسماء. ضروري لروح الإنسان ولقلبه ولشعوره. مادامت الحياة حياة

---

1 _____ أحلام شاعر. ص 167

2 _____ قيود الأحلام. ص 169

3 _____ هذه الفقرة من مقال للشابي، أورده محمد الحليوي في كتابه (مع الشابي). ص 48

4 _____ انظر، شوقي ضيف، في النقد الأدبي. دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة ب.ت. ص 149

5 _____ الغاب. ص 263

والإنسان، إنسانا>> [1]. ذلك أنّ الخيال أحبّ إلى الشاعر الرومانتيكي من الحقيقة [2]، لأنّه يساعد على الحلم، وينمّيه. يقول شوقي ضيف، متحدّثا عن أهمية الخيال في التجربة الفنية :

<<... إنّ التجربة الفنية ينبغي دائما أن تكون تجربة نفسية للعقل عمل فيها ولكن بشرط أن لايخرجها من عالمها : عالم الرؤى، والأحلام، والصور الطريفة ولعلّه من أجل ذلك كان الخيال مهمّا في التجربة الشعرية ...>>[3] .

ويرى شوقي ضيف أنّ <<الشاعر الحق هو الّذي تبلغ عنده هذه الملكة هذا الكشف أقصى حدودها فإذا كل ما حوله في الوجود أرواح وأشباح وعالم من الرؤى والأحلام >> [4] .

ويبدو أنّ الشابي وجد في الغاب ماجعله يحلّق في عالم الخيال، ويستغرق في عالم الأحلام، ويعيش في بيئة مثالية. يكون فيها الخيالُ رمز هذه البيئة، فهو (الخيال) زيادة على كونه وسيلة هامّة، ترتفع بالشاعر، من العالم، المادي، المحدود، إلى العالم المجرّد، الفسيح، ضرورة لاتستطيع اللغةُ أن تعبّر عن خلجات النفس الإنسانية إلاّ به [5] .

---

[1] _____ أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب. ص 18

[2] _____ انظر، غنيمي هلال، الرومانتيكية. ص 73 وما بعدها

[3] _____ في النقد الأدبي، ص 149

[4] _____ المرجع نفسه، ص 171

[5] _____ انظر ، أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب، ص 25

والباعث على الخيال في كل هذا ، هذه المشاهدُ الطبيعية التي شاهدها الشابي في الغاب. وقد أفصح عن ذلك في هذه الفقرات النثرية،بقوله :

<< ..ربَّ مرآى من مرائى هذا الوجود أضرم في قلبي نيران الشعور وأسكر في نفسي رحيق الخيال ، فأصبحت شعلة نارية تتقد بين البشر>> [1]، وقوله مبيّنا إعجابه بهذا الوسط الشعري الّذي وفّره له الغاب : <<في هذا الوسط الشعري البديع جلست منفردا على ربوة صغيرة تتصل بتلال كثيرة، أفكر بأحلام الحياة، وأتملّى جمال الوجود >> [2].

فهذان النصان النثريان، والنصوص الشعرية السابقة، بيّنتْ مكانة الغاب، كوسط شعري، في نفس أبي القاسم الشابي، لأنّه احتضن شعره. والشعر هو الوسيلة الفنية التي يتحسّس الشابي من خلالها مظاهر الكون، وخوالج النفس. ولذلك فقد اكتسى أهمية كبيرة في حياته. وهذا ماتبيّنه مجموعة من الأبيات، لعلّ أبرزها تعبيرا عن هذه المعاني، أربع أبيات، هي :

البيت الأوّل : أنت ياشعر فلذة من فؤادي تتغنّى وقطعة من وجودي[3]

البيت الثاني : أنت ياشعر قصة عن حياتي أنت ياشعر صورة من وجودي[4]

البيت الثالث : ياشعر! أنت نشيد أمواج الخضم الساحره

الناصعات، الباسمات، الراقصات، الطاهره [5]

---

1 _____ مذكرات الشابي، المذكرة الثالثة عشر، الخميس 16 جانفي 1930 ، ص 51

2 _____ المرجع نفسه، المذكرة الرابعة، السبت 4 جانفي 1930، ص 20

3 _____ قلت للشعر، ص 124

4 _____ القصيدة نفسها والصفحة نفسها

5 _____ ياشعر، ص 60

البيت الرابع : ياشعر! أنت جمال الغروب الساحره [1]

فقد بيّنتْ هذه الأبيات منزلة الشعر في نفس الشابي، لأنّ الشعر يجسّد ماينتاب هذه النفس، من مشاعر، إزاء ذاته، وإزاء الغاب. وشعرُه، كما يقول نظمي خليل:<<ترجمان لما يجول في ذلك الخاطر القوي الجبّار من تصور دنيا جديدة، دنيا بعيدة عن دنيانا، دنيا أقرب إلى دنيا الخيال منها إلى دنيا الواقع >> [2].

ولاشك في أنّ الدنيا القريبة إلى الخيال التي يقصدها الكاتب في النص السابق هي الغاب الذي احتضن، واستوعب شعر الشابي. فكل مافي الغاب يبعث على التفكير، والحلم، والخيال، والإبداع. وهذا مانستخلصه من قوله :

ولكم مساء، حالـــــم متوشـح بالظل، والضوء الحزين الدامي
قد سرت في غابي كفكـر هائـم في نشوة الأحـلام والإلهـام
شِعْري، وأفكاري، وكل مشاعري منشـورة للنـور والأنسـام[3]

ويبدو أثر الغبطة في نفسه لأنّه وجد في الغاب مظاهر الحياة الشعرية التي ظلّ يسعى للظفر بها . ومبعث ذلك أنّ الشابي، أدرك، بوعي، الفرق بين أن يحيا حياة شعرية، كشاعر رومانتيكي، وبين أن يعيش بعيدا عن هذه الحياة. ففي الغاب يصبح أقرب إلى حياة الشعر، وأكثر ابتعادا عن دنيا الناس التي لامكان فيها إلاّ للمادة، من (مآرب الحياة، وشواغل العيش)، كما

---

[1] ـــــ القصيدة نفسها، ص 62

[2] ـــــ نقلا عن كتاب (دراسات عن الشابي)، إعداد : أبو القاسم محمد كرو، ص 198.

[3] ـــــ الغاب، ص 265

أنّ الغاب يحفظ للشاعر شخصيته الشعرية، ويوسع أفق تفكيره «بحثا عن رؤية جديدة للكون، وعن فهم جديد لعلاقة الإنسان بذاته أوّلا، ثمّ بالطبيعة والنّاس ثانيا » [1]. ذلك أنّ الشعر الرفيع عند الشابي «هو الّذي يوسّع أفق الحياة في نفسك ويجعلها تحسّ بتيارات الوجود أكثر ممّا كانت تحس ... وينسيك وجودك الإنساني لتستغرق لحظة في عالم الجمال المطلق الّذي يخلقه الشاعر حواليك » [2].

ومثلما حرص الشابي، بلجوئه إلى الغاب، على أن يصون شخصيته الشعرية، فقد أدرك أنّ الحياة الشعرية التي ينشدها في أحضان الغاب هي السبيل الّذي يستشرف من خلاله، الخلود. وهذا مانستشفه من قوله :

وحياة شعرية هي عندي صورة من حياة أهل الخلود [3]

وهذا الهدف من أسمى الغايات التي يسعى إليها الشاعر من خلال وجوده في الغاب. إذ كلّما تعذّر عليه أن يقنع شعبه، بسمو هدفه، ونبل رسالته، أو تيقّن أنّه لاجدوى من محاولة إقناعه، لجأ إلى الغاب. ولجوؤه إلى الغاب نفور من حياة اللاشعر إلى حياة الشعر، ونفور من حياة الفناء إلى حياة الخلود :

هكذا قال، ثم سار إلى الغاب ليحيا حياة شعر وقدس [4]

---

[1] _____ محمد مصايف، النقد الأدبي في المغرب العربي. الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الثانية، 1984، ص 105

[2] _____ أبو القاسم الشابي، نقلا عن محمد مصايف، المرجع نفسه، ص 104

[3] _____ فكرة الفنان، ص 188

[4] _____ النبي المجهول، ص 148

والغاب ـإذن ـ هو الّذي يضمن للشاعر الحياة الشعرية المنشودة. والشعر هو الّذي يهدي الشاعر إلى <<معرفة حقيقية الإنسان الفعلية وحقيقته الخارجية المزورة >> [1]. وهو المعرفة التي يفرّق الشاعر عن طريقها بين الحقيقة، والزيف.

و هو النور الّذي يستضئ به. والبيت الآتي قد يوضح هذه المعاني :

النور في قلبي وبين جوانحي فَعَلَام أخشى السير في الظلماء [2]

فقد ((... آمن الرومانطقيون [ومعهم الشابي] أنّ الشعر لايستطيع التنفس في عالم الماديات)) [3] ، كما آمن الرومانطقيون أن الشعر <<لايترعرع ولايقوى إلاّ إذا تحرّر من كل قيد وآمن بذاته، وقدرته على الخلق، والإبداع >> [4] .

ولعلّ أبرز هذه القيود، ذلك الواقعُ الّذي كان عليه الشعر، والشعراء في تلك الفترة من تاريخ الأدب العربي الحديث، في تونس، والعالم العربي. وهو الّذي جعل الشابي، ينتقل بشعره من هذا الواقع الّذي تراءى له رديئا إلى الغاب الّذي ترائى له أمثل، لأنّه يصون مكانة الشعر، ويبعث على الإبداع. وقد لخّص الشابي واقع الشعر، والشعراء، قائلا :

---

[1] _____ إيليا الحاوى، الطبيعة والزمن أو رموز الحياة والموت في شعر أبي القاسم الشابي نقلا عن كتاب (دراسات عن الشابي)، ص 254

[2] _____ نشيد الجبار، ص 253

[3] _____ إحسان عباس، فن الشعر . ص 148

[4] _____ ثريا عبد الفتاح ملحس، القيم الروحية في الشعر العربي، قديمه وحديثه. بيروت: لبنان، دار الكتاب اللبناني، ب.ت، ص 290

الشاعر الموهوب يهـــرق فنّـــه هدرا علـــى الأقـدام والأعتـاب

ويعيش في كون عقيم، ميّـــت قد شيّدتـــه غباوة الأحقـــــاب

والعالم النّحْرير ينفـــق عمـــره في فهـم ألفـاظ، ودرس كتـاب

يحيا على رِهم القديم المحتـــوى كالدود في حِمم الرماد الخـابي[1]

فالشعر الصحيح - في تصور الشابي - هو الّذي يكون قد احتضنـه الغـاب، أو كان باعثا على إبداعه.

و السّبيل الّذي ينبغي أن نسلكه لإثبات هذا الإسـتنتاج هـو تصفـح بعـض الفقرات من كتابه (الخيال الشعري عند العرب). فهي التي تحسـم الموقـف في هـذه المسألة، وتفصـح عـن رأي الشـابي، بوضـوح. فهـو يقـرّر أنّ جمـال الطبيعة في الغاب هو الّذي يحدّد شاعرية الأمّة. <<إن كان وسـطها الطبيعـي بهيجـا نظـيرا كـانت شـاعرية الأمّـة خصبـة منتجـة، وإن كـان كالحـا مقشـعرا كـانت كـزّة مجدبة>> [2]. بل يقرّر أنّ الإنسانية كانت سَتُحرم مـن هـذه الآثـار الفكريـة، والشعرية التي خلّفتها،عبر تاريخها الطويل لـولا الوسـط الطبيعـي الجميـل الّـذي يستوقفنا في الغاب [3] . وهذه العلاقة الترابطية بين الغاب المقـدّس، والشـعر الّـذي هـو رسـالة مقدّسـة عنـد الشـابي هـي الـتي جعلتـه ينظـر إلى الشـاعر<<أنّـه إنسـان

---

[1] _____ الدنيا الميتة، ص 271

[2] _____ الخيال الشعري عند العرب. ص 45

[3] _____ المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

رسالي.<<والشاعر الرسول [في تصور الشابي] لايتنزل إلى حقارات الدنيا وساخافاتها ولايلتفت إلى الأعراض الزائلة والعاديات التافهة >> [1] .

ويؤكد الشابي هذه النظرة إلى الشعر والشعراء، فيقول :

<<وكيف يرضى الشاعر الّذي هو رسول تسخير الشعر الّذي هو مقدّس إلى التهنئة بوسام أو وظيف، أو إستنتجاز مطلب، أو إستعطاف مغضب >> [2] .

فهذان النصان النثريان موقف نظري صريح للشابي من الشعر الّذي يسخره أصحابه في خدمة الأغراض المادية الزائلة التي لاتخدم في الانسان الجانب الروحي.

وهكذا نكون قد أدركنا سببا آخر من الأسباب التي جعلت الشابي يبتعد بشعره عن المدينة إلى الغاب. وظلّ ينشد مدينة فاضلة. يكون فيها الشعر والكتاب المقدّس الّذي يحصّن شخصية الشاعر، ويهذّب أذواق النّاس، ويستشرف مستقبل الأمّة بأسرها.

---

[1] _____ أبو القاسم الشابي، نقلا عن : محمّد الحليوي (مع الشابي) ص 70.

[2] _____ نقلا عن المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

جـ ـ التأمل في الحياة والموت

وينبغي قبل أن نسترسل في الحديث عن تأملات الشابي في الحياة والموت أن نفرق بين التأمل الفلسفي الّذي «يتناول المجردات فيدقق النظر فيها إدراكا لكنّهها معتمّدا في ذلك التحليل العقلي » [1]، وبين التأمل الأدبي الّذي يهدف إلى «التعبير عمّا تثيره هذه المجردات في النفس من خوالج وصور وأخيلة » [2].

ويبدو للوهلة الأولى، ومن خلال اطلاعنا على شعر الشابي أنّ هذا الشعر لايخرج عن التأمل الأدبي. وهذا مايتضح في الصفحات الآتية. ويرجع عبد السلام المسدى المنطلقات الأولى لتأملات الشابي في الحياة والموت إلى وفاة والد الشاعر [3].

إذ يقول : « والناظر في منعطفات ديوان الشابي يدرك عند الإستقرار أنّ الشرارة القادحة لكلّ هذه التأملات إنّما تنبعث من موت أبيه » [4].

ولاغرابة أن تكون وفاة والد الشابي الباعث القوى لتأملاته. فقد كان والده القدوة الحسنة في حياته، والرمز المثاليّ في سلوكه [5]. ولّما أدركت المنية

---

[1] _____ ثريا عبد الفتاح ملحس، القيم الروحية في الشعر العربي. قديمه وحديثه. ص 332.

[2] _____ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] _____ توفى الشيخ محمّد بن بلقاسم الشابي في الثامن من شهر سبتمبر سنة 1929. للتوسع في دلك.انظر، أبو القاسم محمد كرو، الشابي : حياته وشعره .ص 40

[4] _____ قراءات . ص 50

[5] _____ فقد قدّم الشابي لكتابه (الخيال الشعري عند العرب)، بهذه الكلمات :
«إلى حضرة الوالد الكريم، الشيخ محمد بن بلقاسم الشابي الّذي ربّاني صغيرا وثقفني كبيرا، وأفهمني معاني الرحمة والحنان، وعلّمني أنّ الحق هو خير ما في هذا العالم، وأقدس ما في هذا الوجود»، انظر، (الخيال الشعري عند العرب)، صفحة الإهداء.

الإبن (الشاعر) للفاجعة، ورثاه بقصيدة (ياموت). ولم يكن من قَبْل قد قال قصيدة في الرثاء [1]. وطالعها:

ياموت ! قد مزّقت صدري وقصمت بالأرزاء ظهرى [2].

والّذي لاشك فيه أنّ الشابي قد وجد في الغاب ماغذّى في نفسه هذا التأمل. إذ أيقظ في ذاكرته، شعورا بالحيرة إزاء ماكان يرى، ويشاهد، ويسمع، وإزاء هذا الصمت الّذي يخيّم على بعض المشاهد، بدءا بهذا الإمتداد الطبيعي الصحراوي الفسيح رغم أنّ الشابي لم يُولِ الطبيعة الصحراوية تلك العناية التي أَوْلاها للطبيعة الغابية ــ كما عرفنا ذلك، في السابق ــ. فقد كتب الشابي إلى صديقه، محمد الحليوي، قائلا : <<... سأترك القلم لحظة لأمسح جبيني المندّى بالعرق وأوقظ ذاكرتي بتملي جمال الصحراء الّذي يمتدّ أمامي ... ولقد يخيّل لي أنّه يفكر في ماوراء هذا العالم الصاخب الموّار ... في معاني الفناء والموت والظلام >> [3].

وممّا يؤكد أنّ الفترة التي أعقبت وفاة والد الشابي قد شكّل التأملُ فيها القطبَ الرئيسي أنّ أغلب القصائد التي نَظَمَها الشابي بعد قصيدة (ياموت) هي قصائد في التأمل، أو تتخللها بعض الإشارات التأملية [4]. وقد طرح الشابي في

---

[1] _____ ليس في ديوان (أغاني الحياة) قصيدة أخرى في الرثاء، راجع الديوان.

[2] _____ الديوان، ص 137

[3] _____ أبو القاسم الشابي، رسائل الشابي. إعداد : محمد الحليوي، الطبعة الاولى، 1966، الرسالة الثانية والثلاثون، ص 153 ، من توزر سنة 1929.

[4] _____ راجع ـ مثلا ـ القصائد الآتية : ـ إلى الله. ص 141، ـ حديث المقبرة ـ ص 196، ـ شجون ـ ص 163، ـ الأشواق التائهة ـ ص 164. ـ في ظلّ وادي الموت ـ ص 203

هذه القصائد جملة من المسائل المتعلقة بمشكلتي الحياة، والموت، ومايتفرع عنهما من قضايا وجوديه، كالفناء، والخلود.

وإذا كان لوفاة والد الشابي أثر في نزوع الشابي إلى التأمل في المسائل المجرّدة، التي مافتئت البشرية تعتبرها لغزا محيرا وخاصة الموت، والخلود، فإن للهزات والأزمات التي عرفها العالم العربي فيما بين الحربين العالميتين [1] أثرا في زعزعة كثير من القيم، والمفاهيم التي كانت إلى ذلك العهد من الأمور (المحرّمة)، أو التي لايجرؤ أحد على الخوض فيها. وقد كان انشغال الشابي بمشكلة الحياة، والموت، والفناء، والخلود صدى من أصداء هذا التفكير الّذي فرضته هذه الفترة التاريخية. <<فمن وعى بواقع شعبه يرزح تحت كابوس المستبد إلى وعي وجودي هو تأملات في منزلة الإنسان ووضع الكائن البشري الممزّق بين مقتضيات الجسم والروح>> [2] ، وزيادة على هذا كلّه فإنّ شخصية الشابي كانت شخصية رومانتيكية، توّاقة إلى استكشاف المجهول، بحثا عن الحقيقة، وشعورا بالضيق الّذي يميّز العالم الأرضي <<ومالرومانسية في الأصل إلاّ شعور بضيق فاجع تجيش به صدور تحلم بالإتساع>> [3] . وقد ظهر ميل أبي القاسم

---

[1] _____ ويمكن أن نحصر هذه الهزات، والأزمات في النقاط الأساسية الأتية :

ا ـ الآثار السيئة التي خلفتها الحرب العالمية الأولى.

ب ـ الأزمة الإقتصادية التي عرفها العالم سنة 1929.

جـ ـ ظهور حركات تجديدية في المشرق، والمغرب العربين، تدعو إلى أفكار، وآراء جديدة لم يألفها الناس. تزعمها في المشرق، لطفي السيد، وطه حسين، وقاسم أمين، والطاهر الحدّاد، وأبو القاسم الشابي في تونس. للتوسع في ذلك انظر، أبو زيان السعدى، في الأدب التونسي المعاصر. الشركة التونسية للتوزيع، ب.ت. ص 71 وما بعدها.

[2] _____ عبد السلام المسدى، قراءات . ص 16

[3] _____ عبد العزيز قاسم (الشابي بعد أربعين سنة). الفكر، عدد 4، 1975. ص 95

الشابي إلى استكشاف الحقيقة، بوضوح في كثير من القصائد. ورغم أنّ المحيط الّذي عاش الشابي في كنفه كان محيطا متزمّتا، يعيش على القديم، ويستسلم لكلّ ماهو عتيق. فقد كان الشابي جريئا في طرح بعض القضايا الوجودية المتعلّقة بحقيقة الإنسان، والكون، ومصيرهما. ذلك أنّ هذا المحيط كان «يكفر من شك في كرامات الأولياء والدراويش» [1] . ويعتبر ذلك خروجا عن العرف، ومساسا بعقيدة الأمّة [2] . فكيف «يطرح أسئلة عن المبدأ والمصير» [3] . وقد كان تساؤل الشابي عن المبدأ، والمصير يحتل جزءا كبيرا من تفكيره. ولم يَجِدْ من يرسم هذا التساؤل إلاّ عناصر الطبيعة في الغاب. فهو - مثلا - يسأل الرياح عن البداية والنهاية والغاية من هذا الوجود، قائلا :

نحن نمشي، وحولنا هاته الأكوا

ن تمشي ....، ولكن لأية غايه

نحن نشدو مع العصافير للشمس

وهذا الربيـــــع ينفـــح نايه

نحن نتلو رواية الكـــون للموت

ولكـــن ماذا ختـــام الروايـــه

---

[1] _____ المرجع نفسه. ص 92. وقد ذكر الكاتب أنّ الأوساط المحافظة كفّرت الشابي، لقوله في قصيدة (إرادة الحياة) :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدر

[2] _____ المرجع نفسه. ص 93

[3] _____ المرجع نفسه. ص 92

هكذا قلت للرياح فقالت :

«سل ضمير الوجود، كيف البدايه » [1].

فهذه الأسئلة الوجودية التي طرحها الشاعر في الأبيات السابقة، لاتطفئ في نفسه الشوق إلى استجلاء الحقيقة. إذ يستسلم إلى مشاعره، ويعود، يسأل، في نشوة:

وإذا سألت : «لمَ الوجود، وكلّه همّ مذيب»

قالت : «نواميس السماء قضت ومالك من هروب » [2]

وهذه الأسئلة، يختلط فيها التأمل بالحزن ـ كما يبدو في البيتين السابقين ـ. وهذه الظاهرة تنطبق على كلّ شعره التأملي، لأنّه كان يتأمل ويعاني [3].و«معاناته كانت حتما عليه يتملّى بكل موجود والموجود الآخر القائم إلى جنبه أو في ضميره» [4]. ويستغرق الشابي في تأملاته. ويجد في الغاب كلّ السّبل التي تؤمّن له هذه التأملات، مِنْ بُعْدٍ عن المدينة، والنّاس، ومشاهد طبيعية، تبعث على التأمل :

---

[1] _____ في ظلّ وادي الموت، ص 203

[2] _____ نشيد الأسى، ص 121

[3] _____ إيليا الحاوي، الطبيعة والزمن أو رموز الحياة والموت في شعر أبي قاسم الشابي، نقلا عن كتاب (دراسات عن الشابي)، ص 103

[4] _____ المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

وبعيدا ...، هناك في معبد الغاب الّذي لايظلـه أيّ بـؤس
في ظلال الصنوبر، الحلو، والزيتون يقضي الحياة، حرسا، بحرس [1]

وفي الغاب، يقضي الشـاعر الزمـن اليومـي، مـن حياتـه، بمستوياته الثلاثـة (الصباح، والمساء، والليل) على النحو الّذي تبيّنه الأبيات الآتية :

ـ ا ـ

في الصباح الجميل يشدو مع الطير ويمشـي في نشـوة المتحسّى
نافخا نايـه، حواليـه، تهتـز ورود الربيـع مـن كلّ فنـس
شعره مرسـل، تداعبـه الريـح على منكبيه مثـل الدمقـس
والطيور الطّـراب تشدو حواليه وتلغو في الدوح من كل جنس[2]

فهذه الفترة تمثل في نفـس الشـاعر مرحلـة الإنتشـاء، والفـرح، فكـل مـافي الغاب يدعو إلى الانشراح. إذ يعيش الشاعر مـع عنـاصر الغـاب بكـل جوارحـه. وكأنّه يهيّئ نفسه للاستغراق في تـأمل عميـق يفضـي بـه إلى معانقـة كـل عنـاصر الغاب.والشاعر <<في حالة تأمله العميق ينتهي إلى محبّة كل ذرة في هذا الوجود>> [3].

---

[1] ـــــ النبي المجهول، ص 148

[2] ـــــ القصيدة نفسها، والصفحة نفسها.

[3] ـــــ مصطفى فروح، نقلا عن ثريا عبد الفتاح ملحس، القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه. ص 293.

أمّا في المساء فيتسرّب الحزن إلى نفس الشاعر. ويصبح أكثر استعدادا للتأمل. ويعمّق النظر في كل ما يحيط به :

- ب -

وتراه عند الأصيل، لدى الجدول يرنو للطائر المتحسّى

أو يغنّي بين الصنوبر، أو يرنو إلى سدفة الظلام الممسّى[1]

وتكرار كلمة (يرنو) قد يدّل على أنّ الشاعر بدأ يقترب من مرحلة التأمل الحقيقي. والليل أفضل مراحل التأمل، لأنه المرحلة الّتي توافق نفس الشاعر التي تنزع إلى (الوحدة والإنفراد) :

- جـ -

فإذا أقبل الليل، وأمستْ ظلمات الوجود في الأرض تغسى

كان في كونه الجميل، مقيما يسأل الكون في خشوع وهمس :

عن مصبّ الحياة، أين مداه وصميم الوجود أيّان يرسي

وأريج الورود في كل واد ونشيد الطيور، حين تمسي

وهزيم الرياح في كل فج ورسوم الحياة من أمس أمس

وأغاني الرعاة أين يواريها سكون الفضا وأيّان تمسي[2]

ولا نستغرب أن يستغرق الشاعر في تأملاته، في الليل، وتنهال على فكره مجموعة من الأسئلة، تدور حول الحياة، والموت، والمصير الذي يؤول

---

[1] _____ النبى المجهول، ص 148

[2] _____ القصيدة نفسها، والصفحة نفسها.

إليه هذا الكون. فـالليل «أكثر مظـاهر الطبيعـة اجتذابـا للرومانسيين ... لأنّـه عـالم الوحدة ... يمحو الحدود والفوارق، ويوحي بالتحرر والإنطلاق ... فيه يسود الصمت، وتتلاشى الحركة، فيستسلم الرومانسي إلى الهدوء الّذي يتبغيه» [1] .

وإذا كانت الأبيات القليلة السابقة لاتمثّل أحسن النمادج الشعرية في التأمل، فلا شك في أنّ للشابي نماذج أخرى، ترتفع عن هذا المستوى، عمقا، ودلالة، ولكنّها لاترقى إلى مستوى التفكير الفلسفي، لأنّ العاطفة تظل المقياس الرئيسي الّذي يتحكم فيها، كما أنّ الشابي ظلّ منشغلا بمصير عناصر الطبيعة في الغاب، دون سواها، وظلّ تفكيره منصبّا على ما يحدث لهذه العناصر، من تغير، وتحوّل، واندثار. وكأنّ عناصر الطبيعة في الغاب هي وحدها التي تجسّد الحياة، والموت، والفناء. فقد أفزعه، إلى درجة الأسى أن تهلك هذه العناصر، ويصيبها الفناء :

أتطوي سماوات هذا الوجود ؟ ... ويذهب هذا الفضاء البعيد ؟
وتهلك تلك النجوم القدامى ؟ ... ويهرم هذا الزمان العهيد ؟
ويقضي صباح الحياة البديع ؟ ... وليل الوجود الرهيب، العتيد ؟
وشمس توشى رداء الغمام ؟ ... وبدر يضيء، وغيم يجود ؟
وضوء يرصع موج الغدير ؟ ... وسحر يطرز تلك البرود ؟
وبحر فسيح، بعيد القرار ... يضجّ، ويدوي دويّ الرعود ؟
وريح تمر مرور المَلاك ... وتخطو إلى الغاب خطو الوليد ؟
وعاصفة، من بنات الجحيم ... كأنّ صداها زئير الأسود
تعج، فتدوى حنايا الجبال ... وتمضي، فتهوى صخور النجود ؟

---

[1] فايز ترحيني، (الرومانسية في الأدب)، مجلة : دراسات عربية، ص 124

وطير تغنيّ خلال الغصـــــون وتهتـف للفجر بين الـــــورود ؟
وزهر ينمق تلـــــك التـــلال وينهـــل من كلّ ضـــوء جديد ؟[1]

ويبدو أنّ هذا المصير المحتوم الّذي ستؤول إليه عناصر الغاب ـ والّـذي بيّنته الأبيات السابقة ـ يفجع الشابي لأنّه يرى أنّ فناء هـذه العنـاصر يعـني فنـاء الحيـاة كلّها. فالحياة بدون عناصر الغاب تعدّ ضربا من الموت ـ في تصور الشـابي ـ. وهذا ما يتضح من قوله :

أيسطو على الكلّ ليل الفناء ليلهو بها الموت خلف الوجود
وينثرها فى الفراغ المخيـف كما تنثر الورد ريـــح شـــرود
فينضب يم الحيـاة الخضـــمّ ويخمـد روح الربيـع الولـــود[2]

وهكذا يتأكد أنّ وجود الشاعر في الغاب كان باعثا قويّـا علـى التـأملات في الحياة، والموت، والفناء. وهذا ماجعل إيليا الحاوى، يقـول : «فاعتزال الشـابي هو اعتزال تـأمل ومعرفـة، بـه يغذي روحـه ويتغذّى بهـا ويرتفـع عـن حيـاة العامـة والشعب» [3] .

ولعلّ هذا التأمل هو الّذي حبّـب إلى الشـابي العزلـة «حتـى صـار محيطـه محيطـا نظرياً بحتا من المطالعة والتأمل والحديث النفسي، وتمّت فيـه بذلك روح الملاحظـة

---

[1] _____ حديث المقبرة، ص 197

[2] _____ القصيدة نفسها ، ص 198

[3] _____ الطبيعة والزمن أو رموز الحياة والموت في شعر أبي القاسم الشابي. نقلا، عن كتاب (دراسات عن الشابي)؛ ص 258.

والاعتبار حتى تربّت فطرته على المنهج الفلسفي فكان ينظر إلى الوجود من خلال المناظر الطبيعية>> [1] .

والحقيقية أنّ الغاب هو الجسر الوحيد الّذي أطلّ منه الشابي على عالمين، يعدّان أساس هذا الكون، هما : الحياة، والموت، رغم مايبدو من تناقض بينهما. فالحياة -في تصور الشابي- تصبح لاجدوى منها إذا كان الموت، والفناء لابدّ أن يباغتا الجميع، فيأتيا على كل ماخلقه الله، ومابناه البشر :

أرى هيكل الأيّام يعلو، مشيّدا ولابد أن يأتي على أسسه الهدم
فيصبح ماقد شيّد الله والورى خرابا، كأنّ الكلّ في أمسه وهم
فقل لي<<ماجدوى الحياة وكربها وتلك التي تذوي، وتلك التي تنمو ؟>>
<<وفوج تغذّيه الحياة بليانها وفوج، يرى تحت التراب له ردم>> [2]

ورغم أنّ الموت، والفناء اللّذين يصببان الكون، فيغدو الكلّ خرابا، حقيقة إلهية وسنّة ربّانية، فإنّ الشابي لايتقبل ذلك، بسهولة. وهذا مايفصح عنه، بقوله:

كبير على النفس هذا العفاء وصعب على القلب هذا الهمود [3]

---

1 _____ محمد الفاضل بن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية في تونس ص ص 194-95

2 _____ هذه القصيدة منشورة في الديوان، بدون عنوان، وبهذا الشكل (؟) -كما سبقت الإشارة إلى ذلك في التمهيد، انظر، الديوان، ص 171.

3 _____ حديث المقبرة، ص 198

ويعترف الشابي، في الأخير أنّ التأمل في مثل هذه القضايا الوجودية لايجلب إلاّ التعب، والأسى :

قد تفكرت في الوجود، فأعياني، وأدبرت آيسا بالظلامى. [1]

ويعترف -أيضا- أنّ البحث عن حقيقة الحياة والموت هي المشكلة الدائمة التي تشغله، ويبرّر ذلك، بقوله :

فمعي في جوانحي أبد الدهر فؤاد إلى الحقيقة ظامى [2] .

وهذا مايؤكده إيليا الحاوى، بقوله : «وبذلك يتأكد لنا أن مشكلة الشابي الدائمة هي مشكلة الخلود أي مشكلة الحياة والموت » [3] .

ولعلّ أبرز النصوص الشعرية التي تجسّد الحياة والموت في شعر الشابي هي قصيدة (إرادة الحياة). إذ يبيّن فيها الشابي، على لسان الغاب مظاهر الحياة، والموت اللذين يعتريان عناصر الغاب. ويفصح فيها عن مشاعره إزاء هذا التعاقب الذي يحكم هذه العناصر من خلال ثنائيتي (الحياة، والموت)، فيقول :

وقال لي الغاب في رقة محبّبة مثل خفق الوتر :

«يجـــــــرع الشتـــــاء شتـــــاء الفلـــــوح، شتـــــاء المطـــــر»

---

[1] ـــــ يارفيقي، ص 111

[2] ـــــ القصيدة نفسها والصفحة نفسها.

[3] ـــــ الطبيعة والزمن أو رموز الحياة والموت في شعر أبي القاسم الشابي، ص 255

فينطفئ السحـــــر، سحر الغصـــون، وسحر الزهـــر، وسحر الثمر

<<وسحر المساء، الشجيّ، الوديع، وسحر المروج، الشهـــيّ، العطر>>

<<وتهـــوى الغصـــون، وأوراقهـــا، وأزهـــار عهد حبيب، نضر>>

<<وتلهو بهـــا الريـــح في كـــلّ واد، ويدفنهـــا السّيـــل أنّى عبر>>

<<ويفنـــى الجميع كحلـــم يديـــع، تألّق فـــي مهجـــة، واندثـــر>>

<<وتبقى البذور التي حمّلـت دخيـــرة عمـــر جميـــل، عبـــر>>

<<وذكرى فصـــول، ورؤيا حيـــاة، وأشباح دنيا، تلاشـــت زمر>>

<<معانقة- وهي تحت الضباب، وتحت الثلـوج، وتحت الـــمـــدر>>

<<لطيف الحياة الذّي لايملّ، وقلـــب الربيـــع، الشذيّ، الخضـــر>>

<<وحالمة بأغـــاني الطيـــور، وعطـــر الزهور، وطعـــم الثمـــر>>

* * *

<<ويمّشي الزمان، فتنمـــو صروف، وتذوي صروف، وتحيـــا أُخَرْ >>

<<وتصبح أحلامها يقظـــة، موشّحـــة، بغمـــوض السحـــر [1] >>

فالأبيات إشارة، من الشاعر إلى أنّ الحياة، والموت ثنائيتان متلازمتـان. وهمـا <<وجهان لواقع واحد >> [2]. ويتجلّى ذلك مـن خـلال تعـاقب الفصـول، واندثـار

---

[1] _____ إرادة الحياة. ص ص 237-38

[2] _____ إيليا الحاوى، المقال والمرجع السابقان. ص 265

عناصر الغاب في فصل الشتاء، ثمّ انبعاثها في فصل الربيع، في أبهى صورة. وهذا التعاقب بين ثنائيتي الحياة، والموت يتكرّر في نظام دقيق. <<الموت يذهب بالحياة ويطفئها ثم تعود فتنبعث من جديد. وتنهض من رمادها الّذي يحسب عدما >> [1].

وهكذا يظهر أنّ الحياة -كما يراها الشابي- من خلال مظاهر الطبيعة في الغاب ليست هي البداية التي لانهاية بعدها، كما أنّ الموت ليس هو النهاية التي لابداية بعدها. إذ بهما معا ينشد الخلود. وهذا مايمكن أن نفهمه من قوله، مخاطبا (قلبه):

وأنتَ أنت شباب خالد، نَضِر مثل الطبيعة، لاشَيْب، ولاهَرَم [2] .

ولكن الخلود الّذي يسعى الشاعر للظفر به يصبح سأما إذا كان هذا الخلود يعني الاستمرار الأبديّ للحياة. وهذا ما توصل إليه على لسان<< روح فيلسوف جاءت تزور جسدها الّذي أصبح رمّة بالية في أحشاء التراب. فأشفقت على الشاعر المسكين من آلامه الروحية وحيرته الظامئة فأرادت أن تعلمه الحكمة وتسكب في قلبه بَرد اليقين فخاطبته بهذه الأبيات >> [3] . ونقتطف منها قوله :

تبرّمْتَ بالعيش خوف الفناء ولو دُمْتَ حيّا سئمتَ الخلود [4]

---

[1] _____ المرجع نفسه، والمقال نفسه، والصفحة نفسها.

[2] _____ الأبد الصغير. ص 153

[3] _____ هذا التقديم، بقلم شقيق الشاعر، محمد الأمين الشابي انظر، الديوان، ص 198

[4] _____ حديث المقبرة، ص 498

عناصر الغاب في فصل الشتاء، ثمّ انبعاثها في فصل الربيع، في أبهى صورة. وهذا التعاقب بين ثنائيتي الحياة، والموت يتكرّر في نظام دقيق. <<الموت يذهب بالحياة ويطفئها ثم تعود فتنبعث من جديد. وتنهض من رمادها الّذي يحسب عدما >> [1].

وهكذا يظهر أنّ الحياة -كما يراها الشابي- من خلال مظاهر الطبيعة في الغاب ليست هي البداية التي لانهاية بعدها، كما أنّ الموت ليس هو النهاية التي لابداية بعدها. إذ بهما معا ينشد الخلود. وهذا مايمكن أن نفهمه من قوله، مخاطبا (قلبه):

وأنتَ أنت شباب خالد، نَضِر مثل الطبيعة، لاشَيْب، ولاهَرَم [2] .

ولكن الخلود الّذي يسعى الشاعر للظفر به يصبح سأما إذا كان هذا الخلود يعني الاستمرار الأبديّ للحياة. وهذا ما توصل إليه على لسان<< روح فيلسوف جاءت تزور جسدها الّذي أصبح رمّة بالية في أحشاء التراب. فأشفقت على الشاعر المسكين من آلامه الروحية وحيرته الظامئة فأرادت أن تعلمه الحكمة وتسكب في قلبه بَرَد اليقين فخاطبته بهذه الأبيات >> [3] . ونقتطف منها قوله :

تبرّمْتَ بالعيش خوف الفناء ولو دُمْتَ حيّا سئمتَ الخلود [4]

---

[1] _____ المرجع نفسه، والمقال نفسه، والصفحة نفسها.

[2] _____ الأبد الصغير. ص 153

[3] _____ هذا التقديم، بقلم شقيق الشاعر، محمد الأمين الشابي انظر، الديوان، ص 198

[4] _____ حديث المقبرة، ص 498

ويتضح أنّ الشاعر مقتنع بأنّ الخلود الحقّ هو الّذي يكون ثمرة لهذا التكامل بين الحياة والموت. إذ يقول، على لسان روح الفيلسوف :

تأمل ...، فإن نظام الحياة نظام، دقيق، بديع، فريد
فما حبّب العيْشَ إلاّ الفناءُ ولازانه غيرُ خوف اللحود [1]

ويتضح ممّا سبق أنّ تجسيد الشاعر للحياة، والموت، والفناء، والخلود قد انحصر في عناصر الطبيعة في الغاب. فقد أصبح -مثلا- لايستطيع أن يقطف وردة لأنّها تجسد الحياة، والموت أحسن تجسيد. وهذا ما عبّر عنه في إحدى مذكراته، قائلا : «بلى ! فكيف تطاوعني نفسي على أن أقتطفها فتذوى وتموت. وأرى بعيني رفيف الحياة يغيض في أوراقها ... أجل ! فقد أرى أنّني أقترف جريمة تألم لها نفسي باقتطافي وردة يانعة، وأحسب أنّني قتلت نفسا بريئة، وأزهقت روحا طاهرة ... » [2] .

فهذا النص النثري بيّن أنّ ماورد في كتابات الشابي، النثرية [3] ، يطابق ماجاء في شعره فيما يتعلّق باعتبار عناصر الغاب وسيلة هامّة، يتأمل من خلالها، الحياة، والموت، وينظر من خلالها إلى هذا الفناء، والبِلَى اللذين يصيبان الكون.

ومن كلّ ماسبق نصل إلى إدراك أنّ تأملات أبي القاسم الشابي في الحياة والموت لم تَرْقَ - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - إلى مستوى تلك التأملات

---

1 _____ القصيدة نفسها، ص 199

2 _____ أبو القاسم الشابي، مذكرات الشابي، المذكرة الرابعة، السبت 4 جانفي 1930.ص 21

3 _____ أقصد بالكتابات النثرية -هنا- تلك الكتابات التي اعتمدنا عليها في إنجاز هذا البحث. وهي -إلى الآن- : الخيال الشعري عند العرب، ومذكرات الشابي، ورسائله، وبعض الفقرات التي اقتطفناها من بعض المراجع التي وردت في هذا البحث.

الفلسفية التي تنزع إلى التجريد، وترتكز على النظرة العقلية العميقة.

ولا غرو في ذلك. فالشابي لم يكن شاعرا فيلسوفا كما زعم في قصيدته (النبي المجهول) [1]، ولكنه كان شاعرا رومانتيكيا. والشاعر الرومانتيكي لايملك إلاّ عاطفته الجيّاشة، وشعوره الفيّاض.

د ـ المرض

يجب أن نفرق بين تلك العزلة التي قضاها الشابي في الغاب -نفورا من المدينة، وبحثا عن وسط شعري، وتأملا في الحياة والموت-، وبين تلك العزلة التي كانت ضرورة طبيّة -كما يتضح ذلك في الصفحات الآتية-، مع ماهذه الأسباب كلّها، من تداخل، وترابط، وأهميّة. فالعزلة التي كان الدافعُ إليها الأسبابَ الثلاثة الأولى المذكورة كانت تجربة فنية- حقيقة، أوحلما-. أمّا العزلة التي كان الدافعَ إليها المرضُ : فقد كانت تجربة حقيقية. وقد أثبت هذه الحقيقةَ الذين أرّخوا لحياة الشابي ، وفي مقدمة هؤلاء، أبوالقاسم محمد كرو[2] .

ويلخّص محمد فريد غازي مرض الشابي، بقوله :<<كان الشابي يتألم من <<ضيق الأذينة القلبية>> (Retrécissement métral) أي أن دمه الرئوي لم يكن كافيًا >>[3] .

---

[1] _____ يقول في هذه القصيدة، مخاطبا شعبه :

هكذا قال شاعر فيلسوف عاش في شعبه الغبي بتعس

انظر، الديوان. ص 147

[2] _____ انظر، كتابه : (الشابي : حياته وشعره). ص 47 ومابعدها. وانظر، - أيضا- : محمد فريد غازي، الشابي من خلال يومياته. الدار التونسية للنشر، 1975، ص 31 وما بعدها.

[3] المرجع نفسه، ص 33. للتوسع في معرفة طبيعة هذا المرض، انظر، المرجع نفسه، ص 33 ومابعدها.

وإذا كان الشابي لم يفصح عن هذا المرض في شعره، فإنه أشار إليه، بشيئ من الوضوح، في رسائله، ومذكراته. ولعلّ أحسن الأبيات الشعرية، وضوحا، في هذا السياق، قوله، مبيّنا شعوره عن (أول مرّة دخل الغاب، وهو يعاني عبئ المرض):

للّه يوم مضيت أوّل مـــــرّة للغاب أرزح تحت عبء سقامى
ودخلته وحدى، وحولى موكب هزج من الأحلام، والأوهام.[1]

أمّا ماجاء في رسائله فيمكن أن نعتبر هذه الرسالة التي كتبها الشابي إلى محمد الحليوي ،نموذجا لبقية الرسائل [2] . فهذه الرسالة ، تبيّن، بما لايدع مجالا للتأويل أنّ المرض كان سببا آخر من أسباب عزلة الشابي في الغاب ، لأنها تبيّن طبيعة هذا المرض، وحاجة المريض إلى الغاب. إذ يقول، مبيّنا أهمية المناطق الغابية، وأثرها، في صحته : <<... كنت عزمت كل العزم على قضاء المصيف بكامله ببني خلاّد [منطقة منبسطة تقع شمال الجمهورية التونسية] فإنّ الطبيب أصرّ عليّ قائلا : إنّ الزيتون رغم فوائده. لاأهمية له بالنسبة إليّ وإنما المهمّ لي فهو هواء الصنوبر الّذي أهواه من كل قلبي (هواء الكلتوس) وأيضا فإنه يؤثر لي الجهة الجبلية على الجهة المنبسطة ... ولذا فقد قرّ قراري على (عين دراهم)، [منطقة جبلية غابية تقع بالقرب من الحدود مع الجزائر] لتوفر شرطي الطبيب فيها [3] >> .

---

1 _____ الغاب، ص 263

2 _____ للشابي رسائل أخرى يتحدّث فيها عن تعض مظاهر مرضه.

3 _____ أبو القاسم الشابي، رسائل الشابي. الرسالة الثانية والثلاثون، من توزر سنة 1932، ص 153.

فقد أحسّ الشابي أنّه في حاجة إلى الهواء. والهواء ضرورة بشرية، لايستطيع الإنسان أن يستغني عنها. فكيف يستطيع أن يستغني عنها الشاعر الّذي يعاني تضخّما في القلب، وضيقا في التنفس ؟.

والهواء ضرورة لاستمرار الحياة كنقيض للموت. وقد بيّن الشابي في الرسالة السابقة أهمية الهواء، بقوله :

<<... وإنما المهم لي فهو هواء الصنوبر الّذي أهواه من كل قلبي>>.

ونجده يبيّن، في رسالة أخرى الأثر الطيّب الّذي تركته الطبيعة في الغاب، في نفسه، وصحته، قائلا :<<... الفرق بيني وبين نفسي الأولى أنني كنت أتقبل آلام الحياة وأتحسس أشواكها بنفس ضارعة وقلب باك ...أما الآن فإنني ألقاها ببسمة الساحر ونظرة الحالم المفتتن بجمال الوجود >> [1] .

ويقول -أيضا- : <<... إنّ مصيفي هذا العام ومارأيت فيه من صور الطبيعة الجميلة قد أكمل هذا التطوّر ونمّاه. أمّا الآن فإنّني أشعر بإنقلاب قوي في نفسي كل القوة >> [2] .

ولعل من بين نتائج هذا الانقلاب النفسي الّذي تحدّث عنه الشابي، في الرسالة السابقة، هذه القصيدة التي أظهر فيها ارتياحا كبيرا، وأصبح أكثر إقبالا على الحياة. وممّا جاء في هذه القصيدة، قوله، معبّرا عن مظاهر هذا الارتياح:

---

1 ـــــ المرجع نفسه، الرسالة التاسعة والعشرون. ص ص 132-33

2 ـــــ المرجع نفسه، والرسالة نفسها، والصفحات نفسها.

اسكني ياجـراح واسكني ياشجون

مات عهد النواح وزمـان الجنـون

* * *

في فجاج الردى قد دفنـت الألـم

ونثرت الدمـوع لريـاح العـدم

واتخذت الحيـاة معزفـا للنغـم

أتغنـى عيلـه في رحاب الزمن[1] .

فهذه الأبيات -على قلّتها- تعطينا صورة ناصعة عن الأثر الّذي تركته عزلة أبي القاسم الشابي في الغاب، في نفسيته، وفي عملية الإبداع نفسها، كما تبرز لنا التطابق بين مضمون الرسالة السابقة، وبين المضمون الّذي تضمّنته هذه الأبيات. فقد عرف الشابي الغاب أثناء هذه العزلة، عن قرب . وكان كلّما اقترب منه تكشّف فيه مايزيده إعجابا بجماله، وصل حدّ الإنبهار. وقد عبّر عن ذلك، بكثير من المبالغة، بقوله :

صور من الفن المروّع أعجزت وحي القريض، وريشة الرسّام[2]

---

1 الصباح الجديد، ص 230

2 الغاب، ص 264

وهذا الانبهار الّذي أظهره الشاعر في البيت السابق لم يكن ناشئا عن سرّ جمال هذا الغاب. فهذا الغاب لم يكن جماله في مستوى جمال ذلك الغاب الّذي يمكن أن نعثر عليه في بعض بلاد افريقية، أو أوروبة -مثلا-، وإنّما كان الشابي يرى فيه صورة شبيهة بصورة ذلك الغاب الّذي أمكن أن يتصوّره في مخيّلته.

ومهما يكن من أمر فإنّ الشابي قد تحدّث عن الغاب، في شعره، باعتباره رمزا فنيّا جميلا، ومكانا أثيرا للعزلة، أكثر ممّا تحدّث عنه على أنّه ضرورة طبية. ذلك أن الدافع الأساسي إلى العزلة لم يكن المرض -رغم أهمّية هذا الدافع-

وبانتهاء هذا الفصل نكون قد أدركنا المكانة الرفيعة الّتي احتلها الغاب في فكر أبي القاسم الشابي. ومقابل ذلك، فقد أدركنا المكانة المنحطّة الّتي احتلتها المدينة.

ويمكن أن نعبّر عن كلّ ماسبق -بإيجاز- فنقول :

1 - إنّ حديث الشابي عن الغاب هو الفكرة الجوهرية في ديوان (أغاني الحياة)، ولكنّ هذا الحديث لايعدو أن يكون، في كثير من الأحيان، حديثا عن واقع اجتماعي وأدبي، وفكري، عاش الشابي في كنفه، وحديثا آخر، عن واقع مثالي، يحلم به. رسمته له مخيّلته، كنموذج أمثل للحياة، هو الغاب.

2 - ورغم أنّ هذه الحياة المثلى الّتي تعلّق بها الشابي، لاتخلو من بعض الطرافة، بالنسبة للشاعر الرومانتيكي -على الأقل- لأنّها حياة عامرة بالحبّ، والحرية، والبساطة، والجمال إلا أنّها لايمكن أن تكون نموذجا صحيحا لأنّها موغلة في المثالية. وهي لاتتحقق إلا في مخيّلة الشعراء الرومانتيكيين -ومنهم الشابي-.

أمّا النموذج الصحيح للحياة البشرية فهو تلك الحياة التي يتحقق فيها التوازن، والانسجام بين ثنائيتي، الخير، والشرّ، والقبح، والجمال، وبين ثنائيتي (الغاب، والمدينة) -أيضا-. وتلك سنّة الله منذ خلق السموات والأرض.

ويبدو أنّ الشابي قد أدرك هذه السنة الكونية، في آخر الأمر، ولكنّه أدرجها في المنحى الرومانتيكي،قائلا :

هذه صورة الحياة، وهذا لونها في الوجود، من أمس أمس[1]

وليس غريبا أن نجد الشابي، ينتهي به تفكيره إلى إدراك هذه الحقيقة «فنظراته موجهة بلحظات الإنفعال »[2].

3 - ولعلّ هذه النظرات (الموجهة بلحظات الانفعال) هي التي جعلت الشابيّ يتأمل في الحياة، والموت من خلال عناصر الغاب -فقط- لأنّه كان ينظر إليها نظرة عاطفية، مع أنّ الكائنات التي تجسّد الحياة، والموت كثيرة، بدءا بالإنسان نفسه، ولكن يمكن أن نعتبر التأمل في الحياة، والموت من خلال عناصر الغاب أحسن السبل التي يدرك من خلالها الشاعر الرومانتيكي هاتين المشكلتين الوجوديتين.

---

1 _____ شجون، ص 163

2 _____ خليفة محمد التليسي، الشابي وجبران. ص 89 .

الفصل الثالث

الطبيعة الحيّة

أ – الحيوان

الطيور

ب – الإنسان

الراعي

ا ـ الحيوان

تتبعنا عبر مجموعة من النصوص الشعرية صورة الغاب في فكر الشابي. وقد لفت انتباهنا خلال تصفحنا لهذه النصوص أنّ الشابيّ أعطى بعض عناصر الطبيعة الحيّة مكانة الغاب نفسه، أو تزيد. وتحتل الطيور مكان الصدارة في هذه الأهميّة.

الطيور

وتبرز هذه الأهميّة التي أعطاها الشابي للطيور في مستويين، هما :

المستوى الأول : ويتمثل في التواتر الكمي الّذي احتلته كلمة (الطيور) في شعر الشابي.

المستوى الثاني : ويتمثل في هذه العناية التي أبرزها للطيور، باعتبارها مصدرا من مصادر الغناء والموسيقى.

أمّا على المستوى التواتر الكمي . فقد تردّدت لفظة (الطيور) في شعر الشابي خمسا وستين مرّة. وتدرّج الشابي، بعد ذلك من التعميم إلى التخصيص. فذكر لفظة (البلبل) ثمانية عشرة مرّة. وذكر لفظة (العصافير) سبع مرّات. أمّا لفظة(الشحرور). فقد أوردها أربع مرّات. وأورد لفظة (العندليب) مرّتين.

وأمّا مايدلّ على مفهوم (الطيور). فقد ذكر كلمة (سرب) تسع مـرّات [1]. ويكون المجموع بذلك مائة وثلاث مرّة. ويبدو أنّ لهذا التراكم الكمـي مدلـولا في فكر أبي القاسم الشابي – وهذا مانتبيّنه في هذا الفصل.

أمّا مكانة الطيور، باعتبارها مصدرا للغناء والموسـيقى، فتظهـر مـن خـلال تركيز الشـابي علـى نـوع معيّـن مـن الطيـور هـي تلـك الـتي لهـا صـوت جميـل. ويتصدّرها البلبل، والشحرور، والعندليب. فقد أفرد الشابي للبلبل –مثلا– قصيدة مستقلة [2].

ويمكـن أن نستنتج مـن كـل ماسبق أنّ اهتمـام الشـابي بـالطيور، آت، بالدرجة الأولى في هذا الأثر الّذي يتركه صوت الطيور في نفسـه، ومـا يرمـز إليـه هذا الصوت من معنـى، في فكـره. ويحـدّد الشـابي العلاقـة الـتي تربطـه بـالطيور، بوضوح، قائلا :

يهتاجني صوت الطيور لأنّه متدفق بحرارة وطهور [3].

وانطلاقا من البيت السابق يمكن أن نقـرر أنّ صـوت الطيـور أقـوى رابـط يربط الشاعر بالطيور نفسها. ذلك أنّ الشابي يتّخذ موقـف الممتنـع عـن التعـرض إلى شكل الطيور، أو لونها، أو طيرانها في الجـوّ. ومـن الطبيعـي أن نتسـاءل عن سبب ذلك، على غرض يفضي بنا إلى بعض النتائج.

---

1 ـــــ للاطلاع على كـل أنـواع الطيـور الـتي ذكرهـا الشـابي في شـعره، راجـع الجـدول الرابع– في التمهيد.

2 ـــــ هي قصيدة (إلى البلبل). انظر، الديوان. ص 290

3 ـــــ مناجاة عصفور. ص 106

وإذا كان الشابي قد تحدّث في بعض قصائده عن الطيور، باعتبارها رمزا للحرية، فذلك شيئ قليل بالمقارنة مع حديثه عن الطيور، كمصدر للغناء، والموسيقى، وسنشير إلى ذلك، في آخر هذا الفصل.

أمّا الطيور الجارحة، ذوات الصوت المزعج الّذي لايستسيغه السمع، أو لايرمز إلى معنى جميل. فقد امتنع الشابي عن ذكرها امتناعا مطلقا، مثل الغراب، والنسر، والعقاب، وغيرها. ف: صوت البوم (النعيق) -مثلا- يرمز إلى الشرّ، والموت، والهلاك [1]. ومقابل هذا فقد أبدى الشابي إعجابا كبيرا بصوت تلك الطيور التي لها صوت جميل -كما أشرنا إلى ذلك في السابق-. ويأتي صوت البلبل في مقدمة هذه الأصوات. فهذه الأصوات ترمز إلى الطهر، والصدق، والعفوية، كما بيّن ذلك البيت السابق، لأنّها تنبعث من الحناجر، عن فطرة. وهي تقابل ذلك الصوت (الغث، والركيك, والفاتر) الّذي يصدر عن الإنسان، بتصنّع. وهذا مايشير إليه الشابي، بقوله :

مافي وجود النّاس من شيئ به ... يرضى فؤادي أو يسرّ ضميري
فإذا استمعتُ حديثهم ألفيته ... غثّا يفيض بركّة وفتور
وإذا حضرتُ جموعهم ألفيتني ... مابينهم كالبلبل المأسور
متوحّدا بعواطفي، ومشاعري ... وخواطري، وكآبتي، وسروري[2] .

---

[1] هذه النظرة شائعة في الذهنية الشعبية في الجزائر ويبدو أن هذه النظرة نفسها شائعة -أيضا- في بلاد المغرب العربي، وفي بقية بلدان العالم العربي. ذلك أنّ تراث هذه البلدان كلّها تراث مشترك هو التراث العربي الإسلامي رغم وجود بعض الفروق في خصوصية كل بلد، أو منطقة.

[2] منجاة عصفور، ص 106

فقد بيّن النصّ السابق أنّ الشاعر ينفر من الحديث الّذي لاينبعث من أعماق الإنسان، بعفوية، وصدق، وطهارة، ولايعبّر عن مشاعره، تعبيرا صادقا. وهو ينفر -أيضا- من كلّ الأصوات التي لاترمز إلى هذه المعاني، ومنها صوت الطيور الجارحة، لأنّ نفس الشاعر تميل إلى الأصوات الرخيمة، وتستأنس بها. ولذلك فقد أصبح غناء الطيور أمرا لايستطيع الشاعر أن يستغني عنه، لأنّه (روح الوجود)، (وسلوة المقهور). فقد قال الشابي، يخاطب عصفورا :

رتّل على سمع الربيع نشيده واصدح بفيض فؤاك المسجور [1]

فالطيور التي يريح صوتُها نفسَ الشاعر، ويبهجها، من الطبيعي أن يحزن الشاعر لموتها إلى درجة الآسى. إذ بموتها يفقد صوتا رخيما كان بديلا لتلك الأصوات الصاخبة التي ألفتها أذنه في المدينة. وهذا ماتبيّنه الأبيات الآتية التي يخاطب فيها قلبه :

ياقلب ! كم فيك من كهف قد انبجست منه الجداول مالها لُجُمُ
تمشي ...، فتحمل غصنا مزهرا نضرا أو وردة لم تشوّه حسنَها قدَمُ
أو نحلة جرّها التيار مندفعا إلى البحار، تغني فوقها الدّيَم
أو طائرا ساحرا قد انفجرتْ في مقلتيه جراحٌ جمّة ودَم[2]

وعلاقة الشاعر بالطيور لا تقف عند هذا المدى الّذي أشرنا إليه بل إنّ الحياة

---

[1] القصيدة نفسها، والصفحة نفسها

[2] الأبد الصغير. ص 151

التي لا يغنّى فيها طير، لامعنى لها -في تصوره-، والشعب الّذي لايدرك حقيقة غناء الطيور كائن غير جدير بالحياة. وهذا ماعبّر عنه الشابيّ، بقوله، مخاطبا الشعب:

أنت قفر لعين مظلم، مريع جموده
لاترفّ الحياة فيه، فلا طير يغني، ولا سحاب يجوده[1]

ويرى الشاعر أنّ الطيور كائنات عاقلة، تدرك معنى الحياة، وتدرك أنّ يقظة الإحساس هي السبيل إلى مجد النفوس :

سوف أتلو على الطيور أناشيدي وأفضي لها بأشواق نفسي
فهي تدري معنى الحياة، وتدري أنّ مجد النفوس يقظة حس[2].

ويرى الشاعر كذلك أنّ الطيور تدرك معنى الموت -أيضا- لأنّها سترافقه إلى قبره، بعد وفاته، وتشدو أناشيد حزينة -حسرة علىفراقه-. وهذا ماأمكن أن نستنبطه من قوله :

ثمّ تحت الصنوبر الناضر الحلو تخط السيول حفرة رمسي
وتظل الطيور تلغو على قبري ويشدو النسيم فوقي بهمس[3].

فالفعل (يلغو) الذي ورد في البيت الثاني من البيتين السابقين قد يفيد معنى الحزن الّذي أظهرته الطيور لوفاة الشاعر.

---

[1] _____ إلى الشعب. ص 249

[2] _____ النبي المجهول. ص 146

[3] _____ القصيدة نفسها، والصفحة نفسها.

وهكذا يتبيّن من النماذج الشعرية التي سقناها تجاوب الشابي مع أصوات الطيور. فهل كان الشابي على علم بالغناء، والموسيقى ؟. لم تذكر المراجع التي تيّسر لنا الإطلاع عليها أنّ الشابي كان يشتغل بالغناء، والموسيقى ؟.

كلّ ما عثرنا عليه، فقرات من كتابه (الخيال الشعري عند العرب) تدلّ على أنّه كان يتذوق الموسيقى. فهو يتحدّث عنها في قوله، متحدّثا عن نظرة الروح الغربية إلى الطبيعة:

<<هذه الروح التي تنظر إلى الطبيعة كلها ككائن حيّ يترنّم بوحي السماء فيثير في حنايا النفس أنات القيثارة في يد الفنان الماهر من هواجع الفكر، وسواجي الشعور>> [1] .

فهذا الميل الّذي أبداه الشابي في النص السابق تجاه الموسيقى، والغناء يتجلّى بصورة واضحة من خلال عناوين القصائد، كما يتجلّى من خلال عنوان الديوان نفسه (أغاني الحياة)، وقد تطرّق إلى هذه القضية الطاهر الهمّامي في كتابه (كيف نعتبر الشابي مجدّدا) [2] ويبدو أنّ الإشارة إلى هذه العناوين أمر ضروري. وهدفي ليس أن أقوم بدراسة موسيقية، وإنّما أحاول أن أجد تفسيرا لظاهرة ميل الشابي إلى الغناء، والموسيقى، كما أحاول أن أقترب من السّبب الّذي يكون الشابي يهدف إليه. أمّا عناوين القصائد التي تبرز فيها الظاهرة الموسيقية، والغنائية أكثر من غيرها، فيمكن أن نذكر القصائد الآتية :

---

[1] _____ الخيال الشعري عند العرب. ص 65

[2] _____ الدار التونسية للنشر : تونس. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 1976، ص 26 وما بعدها.

(أنشودة الرعد) [1] ، و(أغنية الأحزان) [2] ، و(نشيد الأسى) [3] ، و(أغاني التائه) [4] ،و(من أغاني الرعاة)[5] ، و (ألحان السكرى) [6] ، و(نشيد الجبّار) [7] ، وترتبط هذه العناوين التي تدلّ على الغناء، والموسيقى ببعض الآلات الموسيقية التي ذكرها الشابي في شعره.

وقد ذكر منها، الرباب، والعود، والقيثارة، والمِعزف. وأكثر الآلات الموسيقية استعمالا في شعر أبي القاسم الشابي هي الناي. وقد ورد ذكرها واحدا وعشرين مرّة. وقد يدلّ هذا الإستعمال الكمي على مكانة صوت الناي في نفس الشابي. فهي زيادة على أنّها من أقدم الآلات الموسيقية التقليدية في تاريخ الغناء، والموسيقى العربيين، فإنّ وجودها مرتبط بالحياة البدائية للإنسان.فقد رافقته في كل مراحل حياته. ومازالت ترافقه في كثير من مظاهر هذه الحياة. ومنها حياة الرعاة، وساكني المناطق الجبلية، والأدغال، وأفضلها، تعبيرا عن حياتهم، وتجسيدا لمشاعرهم.

---

1 _____ أغاني الحياة. ص 39

2 _____ المصدر نفسه. ص 99

3 _____ المصدر نفسه. ص 120

4 _____ المصدر نفسه. ص 129

5 _____ المصدر نفسه. ص 216

6 _____ المصدر نفسه. ص 233

7 _____ المصدر نفسه. ص 252

ولهذا فقد كانت لها مكانة مرموقة في أشعار الرومانتيكيين[1] -ومنهم الشابي-.

وبذلك أصبح ميل الشابي إلى الغناء، والموسيقى أمرا ثابتا، إستنتاجا من النصوص الشعرية، وبعض النصوص النثرية التي أوردناها.وهذا أمر لايدعو إلى الاستغراب. فقد كانت الموسيقى، وماتزال ترافق الإنسان في كل مناحى الحياة، في تفكيره، وفي عقائده، كما رافقته في أماكن عبادته [2] . والموسيقى وحدات زمينة تتجاوز إطار الزمن والمكان [3] . وقد أعارها اليونان، والرومان عناية كبيرة. إذ كانت -عندهم- «إلهًا مقتدرا بنوا له هياكل مابرحت تحدثنا بعظمتهم ومذابح فخيمة. قدّموا عليها أجمل قرابينهم، وأعطر بخورهم » [4] ولعلّ هذه الأهمّية التي احتلتها الموسيقى في حياة الإنسان تعود إلى الأثر الّذي تحدثه نغماتُها في النّفس. إذ تسمو بها من العالم الأرضي إلى العالم العلوي. وهذا البعد الروحي الّذي تكتسبه الموسيقى، والغناء، عموما هو الّذي جعل الشابي يعطيهما تلك الأهمية التي تحدثنا عنها في السابق، غير أنّه لم يخرج في كثير من قصائده عن المعنى الذاتي الّذي يجسد حالته النفسية.

---

[1] _____ ولعل احسن من يمثل هؤلاء في الأدب العربي الحديث، جبران خليل جبران في قصيدة (المواكب). فهو يرّدد هذه الآلة كثيرا.

ومنها قوله :

أعطيني الناي وغنّ فالغنا يرعى العقول.

انظر، قصيدة (المواكب)، المجموعة الكاملة لجبران خليل جبران. ص 353

[2] _____ G.Durand, les structures Anthropologiques de l'imaginaire, collection, etudes supérieures N.D, pp. 321-41

[3] _____ المرجع نفسه، والصفحات نفسها

[4] _____ جبران خليل جبران. الموسيقى. المجموعة الكاملة ص 35

فالغناء، والموسيقى، إلى جانب مايتركانه في النفس، من نشوة، وارتياح، فهما – عند الشابي– تعبير عمّا يدور في عالمه الداخلي، من حزن، وأسى، أو سرور، وغبطة. وهذا مالاحظناه في شعره من خلال حديثه عن صوت الطيور. فقد يفيد الغناء، والموسيقى معنى الشدو، والطرب إذا كانت نفسه مسرورة. وقد يفيدان معنى الشكوى، والنحيب إذا كانت نفسه حزينة. وهذا ما تعبّر عنه مجموعة من الأبيات. نختار أحسنها، تعبيرا عن المعنيين السابقين.

أمّا الأبيات التي تعبّر عن المعنى الأول، أي التعبير عن الفرح، والسرور، والانشراح، فقوله، مخاطبا البلبل :

أنت لحن ساحر قد جسّم الدهر صداهْ
فغدا يهتف صدّاحا بأنغام هواهْ
رامقا في نضرة الأزهار أطياف مُناهْ
ساكبا من قلبه الطافح بالوحى لحونهْ
في فؤاد الوردة المستمعهْ
لرخيمهْ[1].

ويقول في القصيدة نفسها :

إنّ في صدرك أوتار السماء الساجعهْ
وبأعماقك أحلام الحياة الرائعهْ
وبآفاقك فجرا من حياة راتعهْ[2]

---

[1] ـــــ إلى البلبل. ص 293

[2] ـــــ ص : 292

ويقول -أيضا- :

صوتك المشبوب من نار الحياة الخالـدهْ
جائشا بالنغمة السكرى الطروب الشاردهْ
يبعث الآمال بالنفـس اليؤوس الخامـدهْ [1]

ومِنَ الأبيات التي تعبّر عن المعنى الأول -أيضا-، قولـه، مخاطبا عصفـورا، ومعبّرا عن ارتياحه لشدو الطيور :

يأيّهـا الشـادي المغـرّد ههنـا ثملا بغبطة قلبـه المسـرور!
قبـّل أزاهيـر الربيـع، وغنّهـا رنم الصباح الضاحـك المحبور
واشرب من النبع، الجميل، الملتوي مابين دوح صنـوبر، وغديـر
واترك دمـوع الفجر في أوراقهـا حتّى ترشفهـا عروس النـور[2] .

فالأبيات الشعرية السابقة كلّها تشير إلى أنّ الطـابع الغنـائي الّـذي يناسـب الحالة النفسية للشاعر هو الّذي طغى على حديـث الشـاعر عـن صـوت الطيـور، وهو -هنا- الطابع الغنائي الّذي يبيّن انشراحه ، وسروره. وأمّا الأبيات التي تعبّر عن المعنى الثاني، أي التعبير عن الحزن، والكآبة اللذين ينتابـان الشـاعر. فيمكـن أن نختار مجموعة من الأبيات. ومنها قوله، مخاطبا البلبل -أيضا- :

أيّها البلبـل ياشـاعر أحـلام الربيعْ
إنّ علـى صوتـك أنداء الدمـوعْ
غنّـني فهو يريني أمل القلـب الصـريعْ
تائه الفكر، يناجي حيرة الفكر الشريدْ
بخشـوع، وسكـون، وحنيـن
يتكلّم[3].

---

[1] _____ إلى البلبل. ص 294

[2] _____ مناجاة عصفور. ص 107

[3] _____ إلى البلبل. ص 290

وتجسيد الشاعر لحالته النفسية التي يغمرها الحزن، والأسى من خلال صوت البلبل، كما بيّنت ذلك الأبيات السابقة لاتقف عند هذه الدرجة بل إنّ الشاعر يستعطف الطيور أن تكفّ عن الغناء، لأنّ نفسه (ألفت لحن الأسى). وهذا مايوضّحه قوله :

كُفَّ عن تلك الأغاني الباسمه
أيّها العصفور
فحياتي ألفت لحن الأسى
من زمان قد تقضّى، وعسى
أن يثير الشدو، في صمت الفؤاد
أنة الأوتار[1]

ويقول، مؤكدا هذا المعنى :

لاتغنيني أغاريد الصباحْ
بلبل الأفراحْ !
ففؤادي، وهو مغمور الجراحْ
بتباريح الحياة الباكيه
ليس تستهويه ألحان السرور
وأغاني النور[2] .

---

1 ـــــ أغنية الأحزان، ص 68

2 ـــــ القصيدة نفسها والصفحة نفسها.

ويذهب الشاعر أبعد من ذلك ويقرّر أن كل من أصبح ينتظر اللحظة التي يفارق فيها الحياة لاتستهويه ألحان الطيور، ولو كانت منبعثة من بين أزهاره الربيع:

إنّ من أصغى إلى صوت المنون
وصدى الأحداث
ليس تستهويه ألحان الطيور
بين أزهار الربيع الساحره
عن جلال الله ! [1]

وسبب امتناع الشابي عن الاستمتاع بأغاني الطيور، كما بيّنتْ ذلك الأبيات السابقة، مبرّر موضوعي -في تصور الشاعر-، تجعل الطيور لاتنشد إلا الأناشيد الحزينة التي تعبّر عن عمق الحزن الّذي ينتاب كثيرا من القلوب. ولا شك في أنّ قلب الشاعر يأتي في مقدمة هذه القلوب. وهذا مايفهم من قوله:

ليت شعري
أيّ طير
يسمع الأحزان تبكي بين أعماق القلوب
ثم لايهتف في الفجر، برنّات النحيب
بخشوع، وإكتئاب ؟ [2]

---

[1] القصيدة نفسها. ص 69

[2] مأتم الحب. ص 43

ويرى الشاعر -أيضا- أنّه مادامت نفسه حزينة. فليس في هذا الكون طائر يتغنّى، غير حزين :

ليس في الدهر طائر يتغنّى في ضفاف الحياة غير كئيب [1]

فليس تغريد الطيور -في تصور الشاعر- إلا تعبيرا عن شكواها وحزنها من مآسي هذا الوجود. وهذا مايؤكده في قوله :

والطيور التي تغنّي وتقضي عيشها في ترنـــم وغريـــد
إنها في الوجود تشكـو إلى الأيّام عبء الحيـاة بـالتغريد [2]

ومّما سبق يتبيّن أنّ نظرة أبي القاسم الشابي إلى صوت الطيور كانت نظرة ذاتية.وهذا أمر طبيعي. فنفس الرومانتيكي هي محور هذا الكون. والرومانتيكيون جميعا يرون العالم من خلال أنفسهم [3] . ولذلك فقد نظر الشابي إلى صوت الطيور، انطلاقا من حالته النفسية، واستعمل من الألفاظ ماينا سب تلك الحالة، فرحا، أو حزنا. فقد استخدم كلمات، الغناء، والشدو، والطرب، للفرح، واستخدم كلمات، الحزن، والشكوى، والنحيب، للكآبة. وهذا ما أشار إليه سليم زيدان ، بقوله : <<إن الشابي على مستوى تجربته الفنية يختار من تلك

---

[1] _____ أيها الليل. ص 76

[2] _____ طريق الهاوية. ص ص 159-60

[3] _____ انظر، محمد غنيمي هلال، الرمانتيكية. ص 54 ومابعدها.

الأصوات ما يعبّر عن حالته النفسية أو ما يخاصره من معاني >> [1] ولعلّ أهمّ مايمكن أن نسجله في هذا السياق أنّ الشابي تحدّث عن صوت الطيور، في أغلب قصائده، باعتبار هذه الأصوات تجسّد الحزن، والأسى، أكثر ممّا تجسّد الفرح، والحبور. وقد كفانا الشابي مشقة البحث عن السبب، بهذه الأبيات التي يصوّر فيها كآبة نفسه تصويرا صادقا، ومعبّرا عن عمق هذه الكآبة، قائلا :

أنا كئيـــــب، أنا غريـــب
وليس في عالـم الكآبة مَنْ
يحمل معشار بعض ما أجد
كآبتي مـرّة، وإن صرخـــت
روحي فلا يسمعنّها الجسد [2].

ويقول في القصيدة نفسها :

كآبة الناس شعلـــة، ومتـى
مرّت ليال خبتْ مـــع الأمد
أمّا اكتئابي فلـوعة سكنـت
روحي، وتبقى بها إلى الأبد [3] .

ويبدو أنّ الكآبة التي وصفها لنا الشاعر في الأبيات السابقة هي سبب لجوئه إلى الغناء، والموسيقى، بغرض مقاومة هذه الكآبة، وبغرض تعويض مافقده،

---

[1] ـــــ معنى الغناء في (أغاني الحياة) لأبي القاسم الشابي. حوليات الجامعة التونســـية. ص ص 149-50

[2] ـــــ الكآبة المجهولة. ص 47

[3] ـــــ القصيدة نفسها. ص 48

من عطف، وحنان في المجتمع. وهذا مايمكن أن نفهمه من قوله، مخاطبا عصفورا:

غرّد، ففي قلبي إليك مودة ... لكن مودة طائر مأسور

هجرته أسراب الحمائم، وانبرت ... لعذابه جنيّة الديجور ...

غرّد، ولاترهب يميني، إنّني ... مثل الطيور بمهجتي وضميري

لكن لقد هاض التراب ملامحي ... فلبثت مثل البلبل المكسور

أشدو برنّات النياحة والأسى ... مشبوبة بعواطفي وشعوري

غرّد، ولاتحفل بقلبي، إنّه ... كالمعزف، المتحطم، المهجور[1] .

ويشرح الشاعر ذلك، بوضوح في إحدى مذكراته، بقوله :

«لست والله غير طائر غريب يترنّم بين قوم لايفهمون أغاني الطيور، ولكن هل يحفل الطائر بالوجود حين يترنم ؟ هل يسأل الناس أيكم يفهم أغاني الطيور؟ كلا! ياقلبي ! كلاّ... سر في سبيلك ياقلبي، و لاتحفل بصفير الأبالسة...» [2].

وإذا كان الغناء، والموسيقى يكتسيان هذه الأهمية التي اتضحت من خلال النصوص الشعرية، والنثرية التي سقناها. فإلى أي مدى كان للغناء، والموسيقى تأثير في نفس أبي القاسم الشابي ؟.

إنّ تأثير الغناء، والموسيقى لاينحصر في أنّهما يخففان عنه الحزن، ويدفعان عنه الهموم، كما يدلّ على ذلك قوله :

---

[1] ـــــــ مناجاة عصفور. ص ص 105-106

[2] ـــــــ أبو القاسم الشابي، مذكرات الشابي. ص 34

غنني، ياأخيّ، فالكون تيهاء، بهـــا قد مزّقت أقدامي
غنني، علّني أنيم همومي، إنّني قد مللت من تهيامي[1].

ولكنّ الغناء، والموسقى، بالإضافة إلى ذلك يعينان الشاعر على مواجهة أعباء الحياة، ويمدّانه بطاقة روحية، تجعله أكثر قدرة على تحمّل هذه الأعباء وهذا ماقد يتضح من قوله :

خذ بكفّي، وغنّني، يارفيقي، فسبيل الحياة وعر أمامي [2].

ولعلّ أهمّ تأثير يحدثه الغناء، والموسيقى في نفس الشاعر أنّهما يدفعان عنه الشّرور التي يمكن أن تتسبّب فيها بعض الكائنات الشرّيرة، بسبب تأثيرهما الروحي، القوي :

غنّني، فالغناء يدرأ عنّا الساحر الجنّ ...، ساكن الآجام [3].

ذلك أنّ الغناء، والموسيقى ينبعان من العالم المجرّد الّذي يرمز إلى التوافق، والانسجام، والطهارة، ويرتفع بالنّفس الإنسانية إلى مستوى أمثل، ويجعلها أقرب إلى عالم المثل العليا. والحرية جزء لا يتجزأ من هذا العالم. والطيور التي تغرّد في الأجواء، في غدوّ، ورواح رمز هذه الحرية. ولهذا السّبب فقد دعا الشابيّ شعبه أن يتشبّه بها، وتكون قدوته في الحياة حتّى

---

[1] _____ يارفيقي- ص 109

[2] _____ القصيدة نفسها. ص 108

[3] _____ القصيدة نفسها، والصفحة نفسها

يتسنّى له أن يعيش حرّا، طليقا، كما تعيش هذه الطيور، ويستمدّ من غنائها مددا روحيّا يكون عونا له على مقاومة الشرّ، والأشرار، والمستعمر، والمستعمرين:

خلقت طليقا كطيف النسيم، وحرّا كنور الضحى في سماهْ
تغرّد كالطير أنّى اندفعت، وتشدو بما شاء وحي الإلهْ
ونمرح بين ورود الصباح، ونتعم بالنور أنّى تراهْ
وتمشي -كما شئت- بين المروج، وتقطف ورد الربى في رُبَاهْ

* * *

كذا صاغك الله يابن الوجود، وألقتك في الكون هذى الحياهْ
فما بالك ترضى بذلّ القيود، وتحني لمن كبّلوك الجباهْ
وتسكت في النّفس صوت الحياة القويّ إذا ما تغنّى صداهْ[1]

ففي الأبيات السابقة إشارة واضحة من الشاعر إلى أن الشعب ، الجدير بالحياة هو الّذي يحبّ الحرية، ويكره العبودية مثلما أنّ الطيور تحبّ الحريّة، وتكره القيود. ويبدو أنّ هذا المعنى الذي أشار إليه الشابي في الأبيات السابقة هو المعنى الوحيد الذي خرج فيه عن المألوف في معظم قصائده، لأنه تحدّث عن الطيور على أنها مصدر من مصادر الغناء، والموسيقى، وغناؤها تعبير عمّا يجول في نفسه من مشاعر الحزن، أو السرور، أكثر ممّا تحدّث عنها، بإعتبارها رمزا للحرية -كما سبقت الإشارة إلى ذلك في بداية هذا الفصل-.

---

[1] ـــــــ يابن أمي: ص 127

ب ـ الإنسان

ـ الراعي

إنّ نفور الشابي من المدينة التي يسكنها الإنسان إلى الغاب الّذي تعيش فيه الطيور المغرّدة، لايعني أنّه كان نافرا من كل الناس، ناقما عليهم جميعا، ولكنه كان منشغلا بقضايا الوجود الإنساني «**متفتحّا على مشاكل قومه ... بإحساس الفنان الّذي يرى نفسه مسؤولا عن الحياة الإنسانية**» [1]. وكان هدفه أن يحافظ على إنسانية الإنسان، ويصون فطرته السليمة التي فطره الله عليها، انطلاقا من هذه الدعوات الصارخة التي كان يطلقها ضدّ هذا الإنسان الّذي أصبح يرتكب الجرائم، ويقترف الآثام، رغبة منه، في إشباع غرائزه، ودفاعا عن مصالحه، ولو أدّى به ذلك إلى القضاء على كلّ بني جنسه. وذلك ماعبّر عنه الشابي في قوله، متحسّرا :

آه من النـــاس الذين بلوتهم ... فقلوتهـــم في وحشتي وحبوري
مامنهم إلاّ خبيـــث غـــادر ... متربّص بالنـــاس شـرّ مصيـــر
ويودّ لو ملك الوجود بأسره ... ورمى الورى في جاحم مسجور
ليبلّ غلته التـــي لا ترتـــوي ... ويكضّ تهمة قلبه المغفـــــور[2] .

فهذا الإنسان الّذي أفسد المجتمع فيه الخلق الفطري[3] ، بما اقترف من إثم، ومارتكب من جريمة، والّذي تحدّث عنه الشابي في الأبيات السابقة هو الذي

---

[1] _____ خليفة محمد التليسي ، الشابي وجبران. ص 95

[2] _____ مناجاة عصفور. ص 106

[3] _____ يبدو أن الشابي كان متأثرا في ذلك بـ : جان جاك روسو الّذي كان يقول: إنّ الإنسان طيّب، بفطرته، ولكن المجتمع هو الّذي أفسده. للإطلاع على آراء روسو في هذه القضية. انظر، محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية. ص 125 ومابعدها.

أخرجه من غابه، لأنه أراد لهذا الغاب أن يكون خاليًا من أيّ صراع، يراق فيه الدم، وتزهق فيه الأرواح، وتختفي فيه القيم الإنسانية الرفيعة التي يؤمن بها الشاعر، وحتّى يكون هذا الغاب جنّة آمنة. تهدأ فيها نفس الشاعر، وتستريح.

ولعلّ هذا السّبب هو الّذي جعل الشابي يخرج الزواحف، والطيور الجارحة من هذا الغاب [1]. فوجود مثل هذا الصراع، وهذه الكائنات يتناقض مع قيم (الحق، والخير، والجمال) [2].

وهذه القيم هي <<المثل التي يدعو إليها الشاعر، ويؤمن بقدسيتها وجلالها>>[3]. وقد أصبح لايدخل هذا الغاب، ولايعيش في رحابه إلاّ من كان مسالما، ومحافظا على فطرته السليمة. ويأتي الراعي في مقدمة هؤلاء بل إنّ الشابي يتحدّث عن الراعي على أنّه الكائن الإنساني الوحيد الّذي ظل قريبا من الغاب، والكائن الإنساني الوحيد الّذي لم تشوّه فطرتَه الحضارةُ الحديثة لأنه بقي بعيدا عن مؤثرات هذه الحضارة. فهو ابن الغاب، والرّمز المثالي لكائناته (الغاب) الحيّة. ولعلّ هذا السبب هو الذي جعل الشابي يوليه أهميّة، كما أنّ الطابع الغنائي الذي يضفيه الراعي على الغاب هو الذي جعل الشابي يحيطه بهذه العناية. وتتمثّل هذه العناية قبل كل شيئ في هذه القصيدة التي خصصها للراعي، والرعاة. وسمّاها (من أغاني الرعاة) [4]. وهذا العنوان يلخّص هذه العناية بوضوح. فقد ربط الشابي فيه بين غناء الرعاة، والرعاة أنفسهم (الأغاني + الرعاة).

---

[1] وقد أشارت إلى هذه القضية سلمى الخضراء الجيوسي. انظر، (أبعاد ا لزمان والمكان في شعر الشابي)، نقلا عن كتاب: (درسات عن الشابي). ص 222 وما بعدها.

[2] انظر، خليفة محمد التليسي. الشابي وجبران. ص 94

[3] المرجع نفسه، والصفحة نفسها

[4] راجع، الديوان. ص 216

كما تحدّث الشابي عن الراعي، والرعاة في قصيدة (المساء الحزين) [1] ، مصوّرا مظهرا، آخر من مظاهر هذه العناية. ويبدو أنّ أهمّ ما يلفت إنتباه أبي القاسم الشابي في الرعاة هذه الأناشيدُ التي تنبعث من حناجرهم، مكوّنة أنغاما عذبة، تحبّب إليه الغاب، وتذكّره بتلك الحياة الإنسانية الأولى التي تَغَنّى بها الرومانتيكيون، وتوسّموا فيها كل المعاني الجميلة، والقيم النبيلة، كالصدق، والطهارة، والبساطة [2] .

وممّا قاله الشابي، على لسان الرعاة في قصيدته (من أغاني الرعاة)، قوله :

أقبل الصبح جميلا، يملأ الأفق بهاهْ

فتمطّى الزهر، والطير، وأمواج المياهْ

قد أفاق العالم الحيّ، وغنّى للحياهْ

فأفيقي ياخرافى، وهلمّي ياشياهْ

* * *

واتبعيني ياشياهي بين أسراب الطيور

واملأى الوادى ثغاء، ومراحا، وحبور

واسمعي همس السواقي، وانشقي عطر الزهور

وانظري الوادي، يغشّيه الضباب المستنير

* * *

---

[1] انظر. الديوان.ص 92

[2] انظر، محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية. ص 170 ومابعدها

واقطفـــي من كلأ الأرض، ومرعاهـــا الجديد
واسمعي شبّابتى تشدو، بمعســول النشيـــــد
نغم يصعد من قلبي، كالشـــادي السعيـــــد[1].

فهذا المشهد الرعـويّ الّـذي بيّنتـه الأبيـات السـابقة ينسـي الشـاعر الواقـع الاجتماعيّ الّذي يعيش فيه، ومايكتنف هذا الواقع، من قيود، عبّر عـن بعضهـا في هذه المذكرة، بقوله :

<<كيف يمكن لشاعر أن يحس بالحياة إحساسا كاملا، وأن يتحدّث إلـى النـاس بأصوات قلبه الكثيرة أن يسكن إلى حياة <<الوظيف>> تلك الحياة الآسنة التي تشبّه غدران الفلاة>> [2]. وشوق الشابي إلى حياة الرعاة في حقيقة الأمـر شـوق إلى تلـك الحياة البدائية التي لم يكن الإنسان يحترف فيهـا مهنـة، و لم يكـن يتطلـع إلىمدينـة، تقيّد حريته، وتبعده عن ماضيه الإنساني السعيد [3] .

ومن الأبيات الشعرية التي تجسد تعلق الشابي بالحياة الإنسـانية الأولى هذه الأبيات الّتي يرسم فيها الشابي عودة الرعاة إلى (أحيائهم)، حين تميل الشمس إلى المغيب. إذ يقول :

أظلّ الفضاء جناح الغروب، فألقـى عليـــه جمـالا كئيـب
وألبسه حلّة من جلال، شجـــيّ، قـويّ جميـــل، غلـــوب
فنامت على العشب تلك الزهور لمرآى المساء الحزين الرهيب

---

[1] _____ الديوان، ص 217

[2] _____ أبو القاسم الشابي –مذكرات الشابي– المذكرة الثامنة، الأحد 26 يناير 1930. ص 65

[3] _____ يرى جان جاك روسو –مثلا– أنّ الإنسان كان سعيدا يوم كان يسكن الكهوف، بعيدا عن كل القيود. انظر، غنيمي هلال، الرومانتيكية. ص 123 ومابعدها.؟

وآبت طيور الفضا الجميـــل لأوكارها فَرِحَـات القلـــوب
وقد أضرمت بأغاريدها حيـــال السمـــاء الفسيـح الرحيب
وولّى رعاة السَّوام إلى الحيّ يزجّونها في صمـــت الغـــروب
فتثغو حنينا لحملانها، وتقطـف زهر المـــروج الخصيـــب
وهم ينشدون أهازيجهـــم بصـــوت بهيـــج، فروح، طروب
ويستمنحون مزاميرهـــــــم، فتمنحهـــم كل لحـــن عجيب[1]

ويربط الشابي عودة الرعاة إلى أحيائهم بما يدور في عالمه الداخلي من مشاعر متناقضة، فيقول :

وأقبل كلّ إلى أهلـه، سوى أملى المستطـــار، الغريـــب
فقد تاه في معبسات الحياة، وسدّت عليه مناحـى الدروب
وظل شريدا وحيدا، بعيدا، يغالب عنف الحياة، العصيـب
وقد كان من قَبْلُ ذا غبطة، يرفرف حول فؤادي الخصيب [2]

فالشابي، بهذا المشهد الرعوي الّذي بيّنته الأبيـات السـابقة يكـون قد استحضر صورة من تلك الحياة البسيطة التي ألفها الرعـاة، ومـن المؤكـد أنّ الشابي قد استأنس بهذه الصورة التي تستميلها نفسه، لأنه عبَّر، بهـذه الصـورة عن دواخله النفسية.

ذلك أنّ <<الشاعر له عالمه الخاص به حيث تلعب التجارب دورا أقلّ ممّا يقوم به الشعور الذاتي وعالمه الّذي يحيا فيه يفوق عالمه الطبيعي >> [3] .

---

[1] _____ المساء الحزين. ص 93

[2] _____ القصيدة نفسها، والصفحة نفسها

[3] _____ غنيمي هلال، المرجع السابق. ص54

ومن هنا أصبح عالم الرعاة أقرب العوالم إلى نفس الشابي. فأناشيد الرعاة هي أوّل الأصوات التي تلقّفها سمعه، بعد أغاني الطيور، حين دخل الغاب. وهذا ما يشرحه الشابي ، بقوله :

وسمعت للطير المغـرّد في الفضـــا ... والسنديان، الشامخ المتسامـى
وإلى أناشيـــد الرعـــــاة، مرفّـة ... في الغاب، شادية كسرب يمام
وإلى الصدى الممراح، يهتف راقصا ... بين الفجاج الفيـح والآكـام
حتى غدَا قلبـــي كناي، متـــرع ... ثمل من الألحـــان والأنغـــام[1].

ويبدو أنّ الأبيات السابقة، ـ على قلّتها، تلخّص نزوع أبي قاسـم الشابي إلى الغناء، والموسيقى من خلال تعلق الشاعر بأغاني الطيور، وأناشيد الرعاة.

ولعلّ أهمّ مايمكن أن نكـون قـد أدركنـاه أنّ نفـس الشـابي تميـل إلى كـل مايعبّر عن الفطرة الإنسانية، تعبيرا صادقا، سواء كانت هـذه الفطـرة، مُجسَّدَة في صوت غنائيّ، أو خُلُق، أو مظهر من مظاهر الحياة.

وإذا كانت الطيور قد ارتبطت بالغناء عند الشابي، فـإنّ عـالَم الرعـاة قد ارتبط، بصفة خاصة بحياة الرعاة أنفسهم. ولذلـك فقـد جـاء حديـث الشـابي عنهما معبّرا عن شوقه إلى تلك الحياة التي يعيش فيها الإنسان على الفطرة.

---

[1] ـــــــ الغاب. ص 263

وهذا يعبّر في ـ حقيقة الأمر ـ عن رفضه للآثار السيئة التي أفرزتها الحضارة الحديثة ، ودعوة غير مباشرة للإرتباط بكلّ ما يُبْقِي الإنسان قريبا من تلك الحياة البسيطة التي يمثلها الراعي، والرعاة في كل مظاهر حياتهم، بدءا بالمزمار الّذي يرافقه إلى تلك الأناشيد التي يطلقها، فتدوي في الغاب، وتمتزج بألحان الطيور. فتصبح رمزا مثاليا للحياة التي ينشدها الرومانتيكيون.

الفصل الرابع

الصورة الفنية

أولا : التشبيه

ثانيا : الاستعارة

ثالثا : الانسجام بين اللفظ والمعنى

أصبح مقرّرا في علم اللسانيات أنّ اللغة ظاهرة إجتماعية [1] ، وأداة تبليغ، وتخاطب [2]، ووعاء فكر، وحضارة. إذ لولا اللغة، لضاع جزء كبير، ومهمّ من التراث الفكري، والأدبي اللذين كانا حصيلة جهود البشرية منذ تاريخها الطويل. ولولا اللغة -أيضا-، لَمَا استطاع الإنسان أن يعبّر عن كلّ مايدور في خاطره، من مشاعر، وأفكار.

ولَئِنْ كان الدور الذي تقوم به اللغة كأداة للاتصال بين الفرد، والفرد، وبين الفرد والجماعة، هامّا-حقّا، فإن الدور الّذي تقوم به اللغة في الإبداع الأدبي، بصفة عامة، وفي الابداع الشعري، بصفة خاصة، يعد أكثر أهميّة. ذلك أنّ اللغة في الإبداع الشعري «تختزن طاقة هائلة من الإيحاء لاتتوفر في الكلام المألوف لأنه في هذا الكلام تكون اللغة مجرد أداة إتصال» [3]. إذ بواسطة هذه اللغة «يرتحل الإنسان على الدوام... من المألوف إلى الجمال ومن الثرثرة إلى الإبداع» [4].

وقد جاءت الصورة الفنية في شعر الشابي تجسّد بعض مظاهر هذا الإبداع . وهي -هنا- الصورة بالمفهوم القديم الذي ينحصر في التشبيه،

---

[1] _____ أنيس فريحة، أثر اللسانيات في التفكير اللغوي، نقلا عن :
عبد السلام المسدى، اللسانيات من خلال النصوص، تونس : الدار التونسية للنشر، النشرة الأولى، 1984، ص 123.

[2] _____ عبد الرحمن الحاج صالح، نقلا عن المرجع نفسه، ص 127

[3] _____ على حرب، (الحقيقة والمجاز-نظرة لغوية في العقل والدولة)، مجلة: دراسات عربية، بيروت، لبنان، عدد 6، 1983، ص 39

[4] _____ المرجع نفسه، ص 36

والإستعارة [1] . وهذا المفهوم هو الّذي اعتمدنا عليه في دراستنا للصورة الفنية في شعر الشابي. ويعود ذلك إلى كثرة استخدام الشابي للتشبيه، والإستعارة.

ولانستطيع أن نقدّم إحصاء نهائيّا عن نسبة استخدام الشابي للتشبيه، والاستعارة، ولكننا متأكدون من ذلك من خلال معايشتنا لقصائده. ويمكن أن نلاحظ ذلك، بسهولة، عبر مجموعة من النمادج الشعرية التي تستوقفنا في هذا الفصل. وينبغي أن نشير إلى أننا سندرس، في آخر هذا الفصل طريقة اختيار الشابي للألفاظ، ومدى انسجام هذه الألفاظ مع المعاني. وهدفنا في كل ذلك أن ندرك الدور الّذي لعبته الطبيعة في إثراء الصورة الفنيّة.

ذلك أنّ الشابي، بقي حريصا في بناء صوره على مااختزنته ذاكرته، من مشاهد، إلتقطها من الغاب، فجاءت هذه الصور مجسّدة في التشبيه، والاستعارة. وكان لخياله الخصب أثر في بناء هذه الصور.

أولا : التشبيه

ليس صدفة أن يكون التشبيه أكثر أنواع التصوير إستخداما في شعر الشابي. فهو <<أبرز أنواع التصوير اطرادا في كلام البشر عامّة، المسموع، والمقروء على حدّ السواء >> [2] . وهو -ايضا- أكثر أنواع التصوير استخداما في كلام العرب.

---

[1] _____ أمّا الصورة الفنية بالمفهوم الحديث. فقد <<تخلومن المجاز أصلا فتكون عبارات حقيقية الاستعمال، ومع ذلك تشكل صورة دالة على خيال خصب>>.انظر، على البطل، الصورة الفنية في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني للهجرة، دراسة في أصولها وتطورها دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1981، بيروت: لبنان. ص 25. للتوسع في هذه القضية ، انظر، المرجع نفسه. ص 15.

[2] _____ محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات، ص 142

يقول المبرّد : <<التشبيه جار في كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد>> [1] . وقد تفنّن العرب القدامى في ابتكار التشبيهات. وقد اعترف بذلك المستشرق الأسباني إميليو غرسية غومز (E. GARCIA GOMES) قائلا : <<كان العرب من أكثر خلق الله إبتكارا للتشبيهات>> [2] .

أمّا كثرة استعمال العرب القدامى للتشبيه -ومنهم الشابي-، من الشعراء العرب المحدثين، فقد يعود إلى كون التشبيه يقرّب المعنى إلى الأذهان، بأيسر السبل، وأقلّ الكلمات، ويضفي على الصورة الفنية بعض ملامح الجمال، لأنه يخرجها من الواقع، ويقترب بها إلى الخيال. فتصبح أكثر إثارة للإنتباه. والشابيّ يقرّر أن <<الإنسان مضطر إلى الخيال بطبعه، محتاج إليه بغريزته لأنّ منه روحه ولسانه وعقله>> [3] . ذلك أنّ اللغة -في تصوره- <<مهما بلغت من القوة والحياة فلا ولن تستطيع أن تنهض -من دون الخيال- بهذا العبء الكبير الّذي يرهقها به الإنسان، هذا العبء الّذي يشمل خلجات النفوس الإنسانية وأفكارها وأحلام القلوب البشرية وكل ما في الحياة، من فكر، وعاطفة، وشعور >> [4] .

ويمكن أن نعتبر هذه الفقرات التي وردت في النصين النثريين السابقين المنطلق الأساسيّ للصورة الفنية في شعر الشابي. فهي تبنى على دعامتين، هما : الذاتية، والخيال. وقد عرفنا أهميّة هذين العنصرين عند الشابي، وعند الرومانتيكين، عموما، في الفصل الثاني. ويجب أن أشير في هذا السياق إلى أنّ

---

1 _____ الكامل. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت : لبنان، ب.ت، ص 42

2 _____ الشعر الأندلسي. ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية. ب.ت. ص 93

3 _____ الخيال الشعري عند العرب.ص 24

4 _____ المرجع نفسه. ص 25

دراستي للتشبيه ستقتصر على أكثر أنواع التشبيه التي استخدمها الشابي، بكثرة، وهي التشبيه البليغ، والتشبيه المجمل.

والتشبيه، عموما، يقوم على عنصرين أساسيين، هما :

المشبّه، والمشبّه به، كما يقوم على عنصرين آخرين غير أساسيين، هما أداة التشبيه، ووجه التشبيه. تسمّى أداة التشبيه الرابط اللفظيّ، ويسمّى وجه الشبه الرابط المعنويّ. أمّا العنصران الثانويان (أداة التشبيه، ووجه الشبه)، فيمكن حذف أحدهما، أو الاستغناء عنهما معا دون أن يؤثر ذلك في الصورة التشبيهية [1] ، كقول القائل : أنت كالشمس، ضياء، وإشراقا.

فالصورة التشبيهية السابقة يمكن أن تكون على الشكل الآتي : أنت شمس.

فالمشبه في المثال السابق هو الضمير المنفصل (أنت). أمّا المشبّه به فهو كلمة (شمس). وأمّا أداة التشبيه (الكاف)، ووجه الشبه (ضياء، وإشراقا). فقد حذفا. والمشبّه به، في عرف البلاغة العربية ينبغي أن يكون أقوى من المشبّه. وذلك حتّى تكون الصورة التشبيهية صورة تشبيهية -حقّا-.

أ ـ التشبيه البليغ

وهو التشبيه الّذي تحذف منه أداة التشبيه، ووجه الشبه. <<**والتشبيه البليغ هو أسمى درجة في التشبيه الصريح من حيث هو يسوّى بين المشبّه به والمشبّه تسوية تامة** >> [2]. ورغم أنّ الصورة الفنية في شعر الشابي ترتكز، بالدرجة الأولى على الخيال، فإن الشابي استخدم التشبيه البليغ استخداما كبيرا.

---

[1] ـــــــ انظر، محمد الهادى الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات. ص 143

[2] ـــــــ المرجع نفسه. ص 150

وهذا النوع من التشبيه لاينطلق فيه الخيال إنطلاقا كبيرا، لأنّ (المشبّه يصبح هو عين المشبّه به). ذلك أنّ كل أركان التشبيه، اللفظية، والمعنوية قد حذفت. فلم يبق -إذن- مجال للخيال. ولعلّ ضعف الخيال في التشبيه البليغ هو الّذي جعل الشابيّ لايكتفي في التعبير عن معنى من المعاني، بصورة تشبيهية واحدة ولكنّه يتبع الصور التشبيهية الواحدة بصور كثيرة متتابعة، كما أنّ ميل الشابي إلى توضيح الصورة التشبيهية، وتبليغ الفكرة، تبليغا أمينا قد يعدّ دافعا آخر إلى ذلك.

وهذا مانلاحظه في قصيدته (إلى قلبي التائه) -مثلا- فهو يشبّه (قلبه) بـ (العش) (الّذي نفرت عنه القطاة)، مرّة، ويشبّهه بـ (الحقل) (المجدب)، مرّة ثانية، ويشبّهه بـ (الليل) (المعتم)، مرّة ثالثة. ونجده في القصيدة نفسها يشبّه (قلبه) بـ (الكهف)، (المظلم)، ويشبّهه بـ (القبر) كما يشبّهه بـ (العود) (الّذي تمزقت أوتاره) ... الخ.

والأبيات الآتية، تلخص ذلك. إذ يقول الشابي، مخاطبا (قلبه) :

أنت يا قلب عش، نفرت عنه القطاة
فأطارته إلى النهر الرياح العاتيات [1].

---

[1] _____ إلى قلبي التائه. ص 132

ويقول :

أنت حقل، مجدب، قد هزأت منه الرعاة
أنت ليل، معتم، تنـــدب فيـــه الباكيـــات
أنت كهف مظلم، تأوي إليـــه البائســـات
أنت صرح، شاده الحبّ على نهر الحيـاة [1]

ويقول -أيضا- :

أنت قبر، فيه من أيامي الأولى رفات
أنت عود، مزّقت كفّه أوتار الحيـاة [2] .

وواضـح مـن الأبيـات السـابقة أنّ الشـاعر أراد أن ينقـل مـن خـلال هـذه المجموعة من التشبيهات صورا من التشبيهات، لشعور واحد ينتاب قلبه هو شـعور الحزن، والأسى. ولعلّ لجوء الشاعر إلى هذه الطريقة في إبـراز المعنـى، عـن طريـق التشبيه البليغ، الإحاطة بكل جزئيات الصورة حتى تكون الصورة التشـبيهية مـرآة عاكسة كل ما يريد أن يعبّر عنـه، أو يجسّـده. وقـد وجـد الشـاعر في الغـاب كـل مايعكس أفكاره، وخواطره. ولذلك فقد انتقى منه كثيرا من العنـاصر الـتي تجسّـد هذه الأفكار، والخواطر. ومنها،زيادة على تلـك العنـاصر الـتي وردت في الأبيـات السابقة الذكر. فقد ذكر الشاعر (الناي)، و(الطيور)، و(القطيع). إذ شبّه نفسه بـ (الناي) في قوله :

<<إني أنا الناي الّذي لا تنتهي أنغامه، مادام في الأحياء [3] >>

---

[1] _____ القصيدة نفسها، والصفحة نفسها.

[2] _____ القصيدة نفسها، والصفحة نفسها.

[3] _____ نشيد الجبّار. ص 253

وشبّه الناس بـ (الطيور) في قوله :

إنّما الناس في الحياة طيــور قد رماها القضا بواد رهيب [1]

أمّا الشعب. فقد شبّهه بـ (القطيع)، قائلا :

والشعب بينهما * قطيع ضائع دنياه دنيا مأكــل وشــراب [2]

ويلجأ الشاعر، عن طريق التشبيه البليغ إلى تصوير المرأة الجميلة. فيختار لها صورا متنوعة، تناسب مقامها، وينتزع أغلبها من الغاب -كعادته- نذكر منها، على سبيل الحصر، قوله، متغزلا :

أنت أرجوحة النسيم فميلي بالنسيم السعيد كل ميل [3] .

وقوله، في قصيدة (صلوات في هيكل الحبّ) في الغرض نفسه، مخاطبا المرأة الجميلة التي يعنيها :

أنت روح الربيع، تختال في الدنيا فتهتز رائعات الورود [4] .

ويعمد الشابي إلى توضيح أدق الحقائق المجردة، عن طريق التشبيه البليغ، لأنه يدرك أنّ التشبيه البليغ هو أقرب الصور الفنية إلى الأفهام، لتوضيح هذه الحقائق للأسباب التي سبق ذكرها.

---

1 _____ أيّها الليل. ص 76

* _____ يقصد الشابي، الشاعر، والعالم.

2 _____ إلى الشعب. ص 249

3 _____ ذكرى صباح. ص 227

4 _____ الديوان. ص 180

فهو -مثلا- يشبّه (السكينة)، وهي شيئ معنوي بـ (الروح)، وهو شيئ معنوي -أيضا-، موغل في التجريد، كما يشبّه (الروح) بـ (شعلة نور) في قوله:

إنّ السكينة روح　　في الليل ليست تضام
والروح شعلة نور　　من فوق كلّ نظام [1].

ونجد الشاعر يحاول أن يبرز، عن طريق التشبيه البليغ أبرز الحقائق المجرّدة المرتبطة بالروح، وهو الموت، فيشبّهه بـ (المهد)، وهو شيئ مادي.

ويبدو أنّ الهدف هو تقريب صورة (الموت) إلى الأذهان، فيقول :

إلى الموت ! فالموت مهد وثير تنام بأحضانه الكائنات. [2]

ونجده في القصيدة نفسها يشبّه (الموت) بـ (الروح)، فيقول :

إلى الموت ! فالموت روح جميل، يرفرف من فوق تلك الغيوم
فروحا بفجر الخلود البهيج، وما حوله من بنات النجوم [3] ...

ومن المؤكد أن تشبيه الشاعر (الموت) بـ (الروح) لايقرّب صورة (الموت) إلى الأذهان بل يزيدها تعقيدا، لأنّ (الموت)، (المشبّه) شيئ مجرّد، و(الروح)، (المشبّه به) شيئ مجرّد -أيضا-. وليس في إمكان الأذهان أن تدرك هذه الصورة، بسهولة. ولعلّ صعوبة إيجاد مشبّه به لـ (الموت) هو الّذي جعل الشابي يختار المشبّه به (الروح)، في الصورة السابقة. ونجده في مقام آخر يلجأ إلى بعض الصور

---

[1] _____ نظرة في الحياة. ص 35

[2] _____ إلى الموت. ص 112

[3] _____ القصيدة نفسها، والصفحة نفسها.

التشبيهية التي يتطلب إدراكها قدرا معيّنا من الفهم، والثقافة كتشبيه (المرأة) الجميلة بـ (الأنشودة)، في قوله :

أنت أنشودة الأناشيد غنّاك إله الغناء، ربّ القصيد [1]

ورغم أنّ الصور التشبيهية السابقة لاتكثر كثرة مطلقة في شعر الشابي، ولكنّها تؤكد ميل الشاعر إلى تلك الصور التي تنزع إلى التجريد. ومع ذلك يبقى هدف الشاعر، عموما، وهدف أبي القاسم الشابي في ديوان (أغاني الحياة) هو <<إيصال المعنى، بأوضح السبل، وأحسنها، وأجملها>> [2] .

وإذا كان التشبيه البليغ هو (أوضح السبل، لإيصال المعنى)، من (حيث هو يسوّي بين المشبّه، والمشبّه به تسوية تامّة)، فيجعل (المشبّه هو عين المشبّه به)، كما سبق أن تحدثنا عن ذلك في الصفحات القليلة السابقة، إلاّ أنّه ليس أحسن السبل، ولاأجملها، لأنّه يخلو من الروابط اللفظية التي تساعد على التحليق في عالم الخيال، بخلاف التشبيه المجمل.

ب ـ التشبيه المجمل

وهو التشبيه الّذي يحذف منه وجه الشبه، ويبقى العنصر الثانوي الآخر (أداة التشبيه). ويتميز التشبيه المجمل عن بقية أنواع التشبيه الأخرى <<بتجرّده من التفصيل >> [3] ، لأنه يخلو من وجه الشّبه. ولذلك يتطلب التشبيه المجمل .

---

[1] _____ صلوات في هيكل الحبّ. ص 180

[2] _____ ريمون طحّان، نقلا عن : عبد السلام المسدى، الأسلوبية والأسلوب. الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، 1982، ص 85

[3] _____ فالتشبيه المؤكد –مثلا– تحذف منه أداة التشبيه، ويبقى وجه الشبه، فيأتي الكلام مفصّلا. انظر، محمد الهادي الطرابلسي خصائص الأسلوب في الشوقيات. ص 147

<<إلماما خاصّا بإطار الحديث أو ثقافة معيّنة تمكنه [القارئ] من الوقوف على الهدف المقصود>> [1]. ويشكل الرابط اللفظي في التشبيه المجمل عنصرا هاما في تكوين الصورة الفنية، نحو : كأنّ، مثل، كأنّما. ويأتي الرابط اللفظي (كأنّ) في مقدمة هذه الروابط، لأنه <<يحمل معنى التخييل>> [2]، أكثر من بقية الروابط اللفظية الأخرى، رغم أن الشابي لم يستخدم هذا الرابط اللفظيّ، بكثرة في شعره.

إذ أتتْ (كأنّ) في المرتبة الثالثة بعد (الكاف)، و(مثل) إلا أنّ الشابي أوردها، بصفة خاصة، في بعض الصور التشبيهية التي تتطلب قوة تخيلية كبيرة، أو أنّ إدراكها يتطلب استخدام هذه الأداة، كتشبيه (الغاب) بـ (المعبد)، في قوله:

والغاب من طهر الحياة كأنما هو معبد، والغاب كالمحراب [3].

وتشبيه (صدى العاصفة) بـ (زئير الأسود)، في قوله :

وعاصفة من بنات الجحيم كأنّ صداها زئير الأسود [4].

أمّا أكثر الروابط اللفظية التي استخدمها الشابي في التشبيه المجمل فهي (الكاف). إذ توشك أن تكون مطلبا أساسيّا، يحرص الشابي على تحقيقه في كثير من قصائده. فهو يستخدمها في البيت الواحد، والبيتين أكثر من مرّة، كقوله، متغزلا، مخاطبا الفتاة التي أحبها ـ حقيقة ـ، أو تصوّرها في خياله :

عذبة أنتِ كالطفولة، كالأحلام كاللحن، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك، كالليلة القمراء كالورد، كابتسام الوليد [5].

---

[1] _____ المرجع نفسه، والصفحة نفسها

[2] _____ المرجع نفسه، والصفحة نفسها

[3] _____ فلسفة الثعبان المقدّس. ص 273

[4] _____ حديث المقبرة. ص 297

[5] _____ صلوات في هيكل الحب. ص 179

وقوله في الغرض نفسه :

ودعيهم يحيون في ظلمة الإثم وعيشي في طهرك المحمود
كالملاك البرئ، كالوردة البيضاء كالموج في الخضم البعيد
كأغاني الطيور، كالشفق الساحر كالكوكب البعيد السعيد
كثلوج الجبال، يغمرها النور وتسمو على غبار الصعيد [1]

ويلجأ الشاعر إلى استخدام (الكاف) في التشبيه المجمل ليعبّر عن بعض ماينتاب نفسه. فهو –مثلا– يشبّه نفسه بـ (النسر)، قائلا :

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشمّاء [2] .

ويشبّه (النغم) الّذي (يصعد من قلبه) بـ (أنفاس الورود)، بقوله :

نغم يصعد من قلبي، كأنفاس الورود [3] .

ومن الصور التشبيهية التي استخدم فيها الشاعر الرابط اللفظي (الكاف) في التشبيه المجمل، قوله ، مشبّها (الموت) بـ (المارد الجبّار) :

والموت كالمارد الجبّار منتصب في الأرض، يخطف من قد خافه الأجل [4]

---

[1] _____ أيّتها الحالمة بين العواصف. ص 220

[2] _____ نشيد الجبّار. ص 252

[3] _____ من أغاني الرعاة. ص 217

[4] _____ غرفة من يم. ص 42

وقوله، مشبّها (الشعب) بـ (الشاة) التي تعيش (بين مخالب الذئب، وسكين القصّاب) :

والشعب معصوب الجفون، مقسّم كالشاة بين الذئب والقصّاب [1]

أمّا الرابط اللفظي (مثل) فلم يكن استخدام الشابي لـه كبيرا. ويمكن أن نختصر هذه الملاحظة في البيتين الآتيين اللذين يشبّه فيهما الشاعر (نفسه) بـ (الطيور)، تارة، وبـ (البلبل)، تارة أخرى. إذ يقول، مخاطبا عصفورا :

غـرّد، ولاترهـب، إنّني مثل الطيور، بمهجتي، وضميري
لكن لقد هاض التراب ملامحي فلبثت مثل البلبل المكسور [2]

وهكذا يتبيّن ممّا سبق أنّ الشابي، حاول، عن طريق التشبيه البليغ، والتشبيه المجمل أن يرسم صورة بعض القضايا الجوهرية التي تشغله كتصوير الحالة النفسية التي تنتاب نفسه، وتجسيد صورة المرأة الجميلة، وتصوير الحالة التي كان يعيشها الشعب، كما حاول عن طريق هذين التشبيهين أن يصوّر (الموت) الّذي مافتئ يشغل الشابيّ، بدءا من وفاة أبيه، كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الثاني. وقد لاحظنا أنّ الشابيّ استقى أغلب هذه الصور التشبيهية من الغاب. وليس غريبا أن يلقي التشبيه البليغ، والتشبيه المجمل، بصفة خاصة، والتشبيه، بصفة عامة كل هذه العناية من لَدُن الشابي.

---

[1] _____ للتاريخ. ص 224

[2] _____ مناجاة عصفور. ص 150

فلقد أدرك الشعراء قبله <<أن التشبيه هو الّذي يخلق الشعر ويصنعه. وأنه لاوجود لما نسمّيه الشعر إلاّ أن نعني بذلك دقة التشبيهات أو البراعة في صياغتها >>[1]. وسواء كان الشابي على علم بهذه الأهمية التي أولاها الشعراء العرب قبله للتشبه، أو لم يكن كذلك. فقد حاول، في كثير من القصائد أن يتفنّن في صياغة هذه التشبيهات. ويبدو أنّ الصور التشبيهية الجميلة -في تصور الشابي- هي تلك الصور التي تكون مستمدّة من الغاب. والّذي أوحى لنا بهذه الملاحظة أنّ الشابي ظلّ وفيّا لهذا التصور في أغلب قصائده. ولعلّ أهم الصور التي وفّق الشابي في صياغيتها -حقّا- هي تلك الصور التي انتقاها مباشرة من الغاب. ويمكن أن نذكر -مثلا- تشبيه (القلب) بـ (العش)، وبـ (الحقل المجدب)، وبـ (الكهف المظلم)، وبـ (القبر) الّذي أصبح رمّة بالية، وتشبيه (صدى العاصفة) بـ (زئير الأسود)، وتشبيه (النفس) -نفس الشاعر- بـ (النسر). وقد كان لذوق الشابي، الفني، وإحساسه المرهف أثر في هذا التوفيق. أمّا الصور التشبيهية التي يبدو أنه أخفق في صياغتها، أو لم يفلح في صياغتها صياغة جيّدة من حيث التقارب بين صورة المشبّه، وبين صورة المشبّه به. فيمكن أن نذكر بعض النمادج التي إستخدمها الشابي في شعره، وسبقت الإشارة إليها كتشبيه (السكينة) بـ (الروح)، وتشبيه (الروح) بـ (شعلة نور). فهاتان الصورتان، علاوة على أن إدراكهما أمر مستعص على الأفهام، لأنهما تتطلبان قدرا من العلم، والثقافة، والفهم -أيضا- فهما موغلتان في التجريد. وهو مايجعلهما أكثر غموضا في الأذهان. ذلك أن اهمية الصورة الفنية في التشبيه هو تقريب الصورة، وتسهيل إدراكها. وقد كان هذا الهدف مطلب الشابي، ومطلب كلّ الشعراء، لأنّ أحد أهدافهم الأساسية في عملية الإبداع الشعري هو تبليغ الفكرة وتوضيح المعنى.

---

[1] ـــــ تامر سلوم ، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي. اللادقية، سورية، دار الحوار ب.ت، ص ص 245-46

ثانيا : الإستعارة

الاستعارة في التراث البلاغي العربي «أسلوب من الكلام يكون في اللفظ المستعمل في غير ماوضع له في الأصل لعلاقة مشابهة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي. وهي لاتزيد عن التشبيه إلا بحذف المستعار له » [1]. فهي -إذن- «ضرب من الشبيه حذف أحد طرفيه الرئيسيين» [2]. وهي عند العرب من قبيل المجاز [3]. و«المجاز هو أداة البلاغة وآلة البيان» [4]. وهو «اجتياز من الشاهد إلى الغائب، ومن الواقعي إلى الرمزي » [5]. ولذلك فهو يمتلك طاقة على الإيحاء. والإيحاء مقياس مهم في تقويم اللغة الأدبية، بصفة عامة، واللغة الشعرية، بصفة خاصة [6]. وهذا مايتجلّى في الاستعارة. إذ «بالإستعارة يتجدد القول وينبجس المعنى ... وتتحول الكلمات إلى رموز» [7]. والمثال الآتي قد يوضّح ذلك. فقولنا : رأيت أسدا يمشي في السوق. الهدف أن نثبت للرجل المعْنِى أنه مساوٍ للأسد في شجاعته وجرأته [8] . فالإستعارة في المثال السابق نقلتنا من الصورة الحقيقية التي هي شجاعة الأسد إلى الصورة المجازية التي هي شجاعة الرجل. وهذا الانتقال من صورة إلى صورة جعل القول (يتجدّد)، والإيحاء يتسع. ويظهر أنّ هذه الطاقة الإيحائية التي تمتلكها الاستعارة هي التي جعلت أبا القاسم الشابي يستخدمها استخداما

---

1 _____ محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات. ص 161

2 _____ المرجع نفسه.ص ص161 -62

3 _____ انظر، المرجع نفسه. ص 162

4 _____ على حرب، الحقيقة والمجاز :نظرة لغوية في العقل والدولة، مجلة (دراسات عربية). ص 38

5 _____ المرجع نفسه، والصفحة نفسها

6 _____ انظر، المرجع نفسه . ص 40

7 _____ المرجع نفسه، والصفحة نفسها

8 _____ انظر د.تامر سلوم، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي. ص 274

كبيرا في شعره، لايبتعد عن كثرة استخدامه للتشبيه. وبما أنّ دراستنا للإستعارة لن تكون دراسة بلاغية معمّقة، فلن نتطرق إلى أنواع الإستعارات [1] ، على حدة. ذلك أنّ توضيح الصورة الفنية التي وردت فيها الإستعارة في شعر الشابي هو الهدف الأساسي. وهذا لايؤثر في دراسة الصورة الفنية نفسها. وعلى هذا الأساس فإن اختيارنا للنماذج الشعرية التي وردت فيها الاستعارة في شعر الشابي يكون بناءا على ماتدلّ عليه هذه الاستعارةُ، من تعبير عن نفسية الشاعر، وتصوير للطبيعة في الغاب، وتعبير عن الحياة، والموت، والحبّ والجمال. وشعرُ الشابي يزخر بهذه الاستعارة. فهو -مثلا- يعبّر عن سروره، بوجوده في الغاب، قائلا :

وإذا دخلت إلى البلاد فإن أفكا ... ري ترفرف في سفوح الطور

حيث الطبيعة حلوة فتانة ... تختال بين تبرج وسفور [2]

فقد استعار الشاعر في البيت الأول من البيتين السابقين كلمة (ترفرف)، وجعلها من متعلقات المستعار له (الأفكار)،واستعار في البيت الثاني كلمة (تختال)، وجعلها من متعلقات المستعار له (الطبيعة). فجاء البيتان معبّران عن معنيين مختلفين، هما : فرح الشاعر بوجوده في الغاب، وتصوير جمال الطبيعة.

---

[1] للاستعارة أنواع كثيرة، منها : الاستعارة التمثيلية، والإستعارة التصريحية، والاستعارة المكنية، والاستعارة المجردة، والاستعارة المجرّدة. للتوسع في معرفة كل أنواع الاستعارات. راجع، محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات ص 161 ومابعدها.

[2] مفاتيح : حصون، ج ص 106 - 107.

والمعروف، المسلَّم به، أنّ الطيور هي التي (ترفرف). والإنسان هو الذي يختال، ولكن الشاعر نقلنا بالاستعارتين السابقتين من المعنى غير المعروف، وغير المباشر، لأنّه لمّح، و لم يصرّح. فجعل الخيال يحلّق، بعيدا عن الواقع العياني، ودون أن يلجأ الشاعر إلى استخدام جمل كثيرة، ودون أن يكلفه ذلك عناء كبيرا. ونجده في قصيدة (الأبد الصغير) يستعير كلمة (رفرف)، ويجعلها من متعلقات المستعار له (الألم) في قوله :

ورفرف الألم الدامي بأجنحة من اللهيب، وأنّ الحزن والألم [1]

فالفعل (رفرف)، في البيت السابق لم يعد مقصورا على (الطيور) ولكنّ (الألم) يرفرف -أيضا-، وله (أجنحة). وبهذه الاستعارة (رفرف الألم)، حاول الشاعر أن يرسم صورة من صور (الألم) واستطاع أن يجعل الأذهان تنتبه إلى عالم الطيور الّذي أحبّه الشاعر، كما بيّنا ذلك في الفصل الثالث. أمّا الصورة التي رسم فيها الحياة، بائسة، باكية. فقد أبرزها في هذه الاستعارة، قائلا :

تتلوّى الحياة من ألم البؤس فتبكي، بلوعة، ونحيب [2]

فقد استعار الشاعر الفعلين (تتلوّى)، و(تبكي)، وجعلهما من متقلعات المستعار لهما (الحياة)، والضمير المنفصل (هي) -الحياة-، كما تبدّت له . وفي القصيدة نفسها، نجده يستعير الفعل (خضّب)، والاسم (أجنحة)، ويجعلها من متعلقات المستعار لهما (الاكتئاب)، و(الأجنحة)، فيقول :

---

[1] _____ الديوان. ص 152

[2] _____ أيّها الليل. ص 74

خضّب الاكتئاب أجنحة الأيّام بالدّمع، والدم الأسكوب [1].

فقد صور الشاعر (الإكتئاب) في البيت السابق في صورة إنسان. يقوم بالفعل نفسه الّذي هو من خصائص الإنسان، كما جعل للأيام (أجنحة)، ولكنّها أجنحة مخضّبة بالدمع، والدم. وبذلك حرّك في النفوس عاطفة الحزن، وجعلها تشاركه بعض أحزانه، لأنه ضخّم، بالاستعارتين السابقتين هذا الحزن إلى درجة وصلت حدّ الكآبة. ولعلّ أحسن النماذج الشعرية التي تبرز الصورة الفنية، مُجسَّدة في الاستعارة هي تلك الاستعارات التي وردتْ في قصيدة (قال قلبي للإلة). إذ يقول فيها :

في جبال الهموم، أنبتُ أغصاني فرفّت بين الصخور بجهد .
وتغشاني الضباب، فأورقتْ وأزهرتْ للعواصف وحدي
وتمايلتْ في الظلام، وعطّرتْ قضاء الأسى بأنفاس وردي[2]

فالاستعارة (جبال الهموم)، و(أنبتُ أغصاني)، و(أورقْتُ)، و(أزهرتُ)، و(عطّرتُ فضاء الأسى)، زيادة على أن الشاعر استمدها من الغاب. فقد رسم فيها نفسه على أنها (زهرة)، تُورِق، وتُزْهِر، وينبعث منها الشّذى كما تورق، وتزهر الورود. وهذه الاستعارات ارتفعت بالشاعر من الواقع العياني إلى واقع آخر هو الغاب، وعبّرتْ عمّا يدور في نفسه من أفكار، ومعانٍ خفيّة، وغير مألوفة. وقد قال الجاحظ في هذا السياق : «الشيئ من غير معدنه أغرب، وكلما

---

[1] _____ الديوان. ص 77

[2] _____ الديوان ص 275

كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلما كان أبعد في الوهم كان أظرف. وكلما كان أظرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع>> [1].

ولا نقصد بالغرابة التي تحدّث عنها الجاحظ في النص السابق صعوبة إدراك المعنى. فذلك شيئ لانجده في شعر الشابي إلاّ نادرا، ولكن نعني بالغرابة <<القدرة على فض أسرار اللغة، القدرة على اكتشاف كل أبعاد التسميات وتعميق مدلولات الألفاظ والعبور إلى حقول دلالية جديدة ... والعثور على المعنى حيث يظنّ اللامعنى>>[2]. ولو أنّ الشابي عبّر عن المعاني التي وردت في الإستعارات التي تحدثنا عنها في السابق بأسلوب حقيقي [3] ، مباشر لتقلّصت (مدلولات الألفاظ)، وانحصرت في المعاني التي وضعت لها في الأصل. ويبدو من النمادج الشعرية التي أوردناها أنّ الشابي يدرك المعاني التي يمكن أن تؤديها الكلمة الواحدة. فـ : كلمة (الأحلام) -مثلا- يستعير لها كلمة (صيف). فتصبح الصياغة الأسلوبية (صيف أحلامي)، وكلمة (نفس)، يستعير لها كلمة (خريف). فتصبح الصياغة (خريف نفسي)، وكلمة (أيام)، يستعير لها كلمة (شتاء). فتصبح (شتاء أيّامي).

وهكذا يلجأ الشابي إلى توسيع معاني الألفاظ، عن طريق استخدام الاستعارة. وكأنّ الاستعارة فسحت له المجال واسعا للتعبير عن كل مايخامر نفسه، أكثر من غيرها. وقد اختصر الشابي الألفاظ السابقة التي أشرنا إليها، في قصيدة (قلت للشعر)، قائلا :

---

[1] _____ البيان والتبيين. تحقيق وتقديم : فوزي عطوى، دار صعب، بيروت : لبنان، ب.ت. ص 62

[2] _____ على حرب، الحقيقة والمجاز. نظرة لغوية في العقل والدولة .ص 40

[3] _____ نقصد بالأسلوب الحقيقي، نزوع اللفظ إلى الحقيقة، أي نزوعه إلى ماوضع للدلالة عليه. للتوسع، انظر، ابن جنى، الخصائص. تحقيق محمد على النجار، مطبعة دار الكتب،حـ3، القاهرة، 1955، ص 442

ويغني الصباح أغنية الحـــــبّ　　على مسمع الشبـاب السعيـد
ثمّ أجني في صيف أحلامـــي　　الساحر مالذّ من ثـــمار الخلـود
فيك يبدو خريف نفسي ملولا　　شاحب اللون، عـاري الأملـــود
فيك يمشي شتـاء أيامـــي البا　　كي، وترغى صواعق، ورعـودي[1]

وفي قصيدة (الدموع)، يقول، معبّرا بواسطة الاستعارة عن شعور الحزن الذي ينتاب نفسه :

إنّ في روضة الحياة لأشواكا　　بها مزقت زنابق نفسي [2] .

فالاستعارة (صيف أحلامي)، و(خريف نفسي)، و(شتاء أيّامي) ، في الأبيات الأربعة الأولى السابقة، والاستعارة (روضة الحياة) في البيت السابق من قصيدة (الدموع) بيّنتْ، بوضوح كيف يتدرج الشابي من المعنى العام إلى المعنى الخاص، أي من الحقيقة إلى المجاز (الاستعارة). ويمكن أن نحصر هذه الألفاظ، ونختصرها، بوجه خاص في الكلمات الآتية :

الربيع ← ربيع الحياة ← ربيع الشباب
الصيف ← صيف الأحلام
الخريف ← خريف النفس ← خريف الجمال

---

[1] _____ الديوان. ص 125

[2] _____ الديوان. ص 73

الشتاء ـــــ← شتاء النفس ـــــ← شتاء الأيام

الليل ـــــ← ليل النفوس

الفجر ـــــ← فجر الشباب

الحقل ـــــ← حقل العمر

الزنابق ـــــ← زنابق النفس

الوادى ـــــ← وادى الزمان ـــــ← وادى الظلام

فالسهم في هذه المجموعة من الألفاظ يشير إلى نزعة اللفظ إلى المجاز، أي الاستعارة. وقد استمدّها الشاعر من الغاب، ودلّت على الناحية الذاتية.

ويمكن -أيضا- أن نبرز تدرج الألفاظ في شعر الشابي من المعنى العام إلى المعنى الخاص، ومن الحقيقة إلى المجاز في الرسم الآتي :

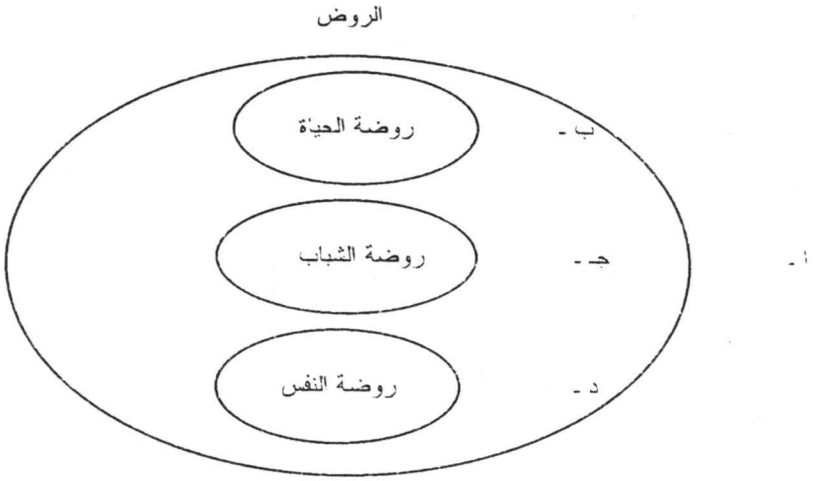

ومّما سبق، نستنتج أنّ الشابي يميل إلى استخدام ألفاظ معينة في صوره الفنية، لأنّه وجد أنّها تجسّد بعض المعاني في نفسه، لأنها ترسم مشاعر هذه النفس، بوضوح. وقد حاول الشابي عن طريق هذه الألفاظ التي تكوّن

الاستعارات أن يقاوم (الكبت الأسلوبيّ) -إذا صح التعبير-. و لَمْ تكن اللغة لِتَستجيب لهذه المقاومة لو لم تَجِدْ في شخصية الشابي استعدادا داخليّا هو هذا الإحساس بكل مايموج في أعماق نفسه، ووعيّا فنيّا بمعاني الكلمات، لأنه لم يتقمّص تجربة غير تجربته. ولذلك فقد حافظ على شخصيته الشعرية من خلال محافظته على صوره الفنية. وهذا شيئ طبيعيّ. فالشعر عند الشابي ((<< "تصوير وتعبير". تصوير لهذه الحياة التي تمر حواليك : مغنيّة، ضاحكة، لاهية، أو مقطبة، واجمة، باكية، أو وادعة، حالمة، راضية، أو مجدفة، ثائرة، ساخطة، أوتصوير لآثار هذه الحياة التي تحس بها في أعماقك، وتقلبات أفكارك، وخلجات نفسك>> [1].

وهذا المفهوم النظري للشعر هو الذي جعل الشابيّ لايلجأ، في شعره إلى تلك الصور الفنية الجاهزة التي تعج بها كتب الأدب، ولكنه كان يلجأ إلى تلك الصور التي يزخر بها عالم الطبيعة في الغاب، ويخضّبها بمشاعره الذاتية. وبذلك يكون الشابي قد طبّق هذا المفهوم النظريّ على صوره الفنية، وفي أغلب قصائده الشعرية. وهو المفهوم النظري نفسه الّذي دعت إليه الرابطة القلمية في المهاجر الأمريكية، على لسان شعرائها، ونقادها. وفي مقدمتهم ميخائيل نعيمة. إذ يقول، وهو يتحدّث عن الفروق الأساسية بين الشاعر الحق، وبين (الشعرور) - حسب تعبير الكاتب << الشاعر لايصف إلا مايدركه

---

[1] أبو القاسم الشابي، نقلا عن : (أبو القاسم محمد كرو)، الشابي : حياته وشعره. ص 270

بحواسه الجسدية، أو يلامسه، لسانه يتكلم من فضلة قلبه>> [1]، وأمّا (الشعرور) فهو عند نعيمة <<ذلك الّذي يصف لنا عواطف لم يشعر بمثلها لابشر ولا جنّ ولاملاك ...>> [2].

ثالثا : الإنسجام بين اللفظ والمعنى

إنّ التعبير عن الفكرة يتطلب اللفظ الدقيق، والمعنى الواضح وقد حاول الشابي، على مستوى تجربته الشعرية أن يوفق بين اللفظ المختار، والمعنى الّذي يؤديه هذا اللفظ. وقد لخّص الشابي ذلك كلّه، بقوله، معبّرا عن مفهومه للشعر : <<الشعر ياصديقي ... تعبير عن تلك الصور ... بأسلوب فنيّ جميل ماؤه القوة والحياة، يقرأه النّاس فيعلمون أنه قطعة إنسانية من لحم ودم وقلب وشعور لأنّهم يحسون أنّه قطعة من روح الشاعر، وعبق من عواطفه ...>> [3]. والشعر – عنده– <<هو هذا الأسلوب الّذي يكون عنيفا كالعاصفة حينما يمثل سخط الحياة أو ثوران العواطف، ويكون وادعا كضوء القمر، حينما يمثّل طمأنينة الحياة وسكون النفس، ويكون رقيقا شجيّا كأنّات ناي بعيد، حينما يمثّل أحلام الحياة ونجوى القلوب المتحابّة، ويكون كئيبا مظلما، حينما يمثل بؤس الحياة، وأحزان البشر>> [4] .

وانطلاقا من هذا المفهوم النظري الذي حدّد به الشابي الشعر، في النصين السابقين، نحاول أن نوضح مدى انسجام اللفظ مع المعنى في شعر الشابي من خلال نصّين شعريين، يعدّان من أروع ماجادت به قريحة الشاعر –أسلوبا

---

[1] _____ ميخائيل نعيمة، الغربال. ص 83

[2] _____ المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[3] _____ أبو القاسم الشابي، نقلا عن (أبو القاسم محمد كرو) الشابي حياته وشعره. ص270

[4] _____ أبو القاسم الشابي، نقلا عن المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

وتركيبا-. ومن خلال هذين النصين، أحاول -أيضا- أن أنظر إلى بقية النصوص التي يضمّها ديوان (أغاني الحياة)، وأقتصر -هنا- على ذكر أهم الأبيات، في النصين، توضيحا للفكرة، وتجسيدا للمعنى.

أمّا النص الأول فهو قصيدة (النبى المجهول). وهي من القصائد الطويلة. إذ تحتوي على تسع وخمسين بيتا. وهي من بحر (الخفيف). حرف الرويّ فيها هو (السين). وطالعها :

أيّها الشعب ! ليتني كنت حطّابا فأهوى على الجندع بفأسي [1].

والشاعر في هذه القصيدة يحرّض شعبه على التحرر، والنهوض، والقضاء على أسباب الضعف، والوَهَن. ويبدو الشاعر في مواجهة عنيفة مع شعبه، لأنّه (الشعب)، استسلم لليأس والتخلف، وتقاعس عن أداء واجبه. وقد استخدم الشاعر، للتعبير عن ذلك الألفاظ التي رأى أنها تعبّر عن هذه المعاني، بوضوح، وعمق، قائلا :

أيّها الشعب! ليتني كنت حطّابا فأهوى على الجذوع بفأسي !
ليتني كنت كالسيول، إذا سالت تهدّ القبور : رمسا برمس !
ليتني كنت كالرياح، فأطوي كلّ مايخنق الزهور بنحسي !
ليتني كنت كالشتاء، أغشّي كلّ ماأذبل الخريف بقرسي !

---

[1] _____ الديوان. ص 145

ليت لي قوة العواصف، ياشعبـــي فألقـــي إليـــك ثـورة نفسـي !
ليت لي قوة الأعاصير، إن ضجّت فأدعـــوك للحيـــاة بنبســـي !
ليت لي قوة الأعاصير ... ! لكـن أنت حيّ يقضى الحياة برمس[1] !

وقد تدرج الشاعر في الأبيات السّابقة، لإبراز الأفكار الآنفة الذكر، بإيراده مجموعة من الألفاظ التي تبرز تلك الأفكار. بدءا مـن فـأس الحطّـاب الّـذي يقتلـع جذور الأشجار الميتة، وهي -هنا- رمزا لنفوس الخـائرة الـتي استسـلمت لليـأس، والعبودية، وانتهاءا بتلك الأعاصـير الهوجـاء الـتي تـأتي علـى الأخضـر، واليـابس، وتقضي على الزرع، والضرع، فتجعل الكل حطاما. وقد كـرّر الشـاعر، للدلالـة على ذلك كلمة (الأعاصير) مرّتين. ولاريب في أن الألفاظ التي استخدمها الشاعر أدّت المعنى الّذي أراد أن يبرزه أداء مناسبا، لأنّها تدلّ على مظاهر القوة، وتحمـل معنى التغيير، وتجسد من ناحية أخرى عنفوان غضب الشاعر، و(ثورتـه النفسـية) إزاء الوضع السيئ الذي أصبح يعيشه الشعب. وقد لاحظنا أن هـذا العنفـوان قد واكبه اختيار الشاعر للكلمات التي تدل على ذلـك. وبعـد أن هـدأت نفـس الشاعر، حاول أن يستميل الشعب، ويقنعه بصدق مشاعره، ونبل رسالته، فعمـد إلى استخدام الألفاظ التي تدغدغ العواطف، وتستطعف النفـوس، ابتغـاء وقـوف الشعب إلى جانبه، وابتغاء تفهمه (الشعب) لرسالته. فخاطبه، قائلا :

في صباح الحياة ضمخت أكوابي وأترعتها بخمـــرة نفســـــي
ثم قدّمتها إليـــــك، فأهرقـــتَ رحيقي، ودستَ ياشعب كأسي
فتألمتُ.. ، ثم أسكـــتُّ آلامـي وكفكفتُ من شعوري وحسّي
ثم نضّدتُ مـــن أزاهيـــر قلبـي باقة لم يمسّهـــا أي إنـــس ...

---

[1] القصيدة نفسها، والصفحة نفسها.

ثم قدّمتها إليـــك، فمزّقْـــتَ ورودي، ودستَهَـــا أيّ دوس
ثم ألبستنـــي من الحـــزن ثوبـــا وبشوك الجبال توّجْتَ رأسـي [1].

فالألفاظ (خمرة نفسي ، رحيق ، باقـة، أزاهـير قلبي، ورود ...) تشـير إلى أنّ الشاعر يريد أنّ يثبت للشعب أنّه مهتم بحاله، راغب في تغيير وضعه.

وَلَمّا لم يتفهمِ الشعب حقيقة الرسـالة الـتي يدعـو إليهـا الشـاعر بـدأ الحـزن يتسرب إلى نفس الشاعر، وقرّر أن يخرج إلى الغاب. ففي الغـاب كائنـات تـدرك رسالته. وقد استخدم الشاعر ألفاظا تناسب المقام، ولجأ إلى تراكيب تؤدي المعنـى أداء صحيحا. إذ قال، مخاطبا الشعب :

إنني ذاهب إلى الغاب، ياشعبـي لأقضي الحياة، وحدي، بيأس
إنّني ذاهب إلى الغـــاب، علـيّ في صميم الغابات أدفن بـؤس
ثمّ أنساك مااستطـعتُ، فمـــاأنْتَ بأهل لخمـــرتي، ولكاســـي
سوف أتلو على الطيور أناشيـدى وأفضي لهـا بأشواق نفســـي
فهي تدري معنى الحياة، وتدري أنّ مجد النفوس، يقظة حـسّ [2]

إنّ تكـرار الشـاعر عبـارة (إنـني ذاهـب إلى الغـاب)، واسـتخدامه عبـارة (ياشعبي) إشارة واضحة إلى أن تلك المواجهة العنيفة التي واجه فيها الشاعر شعبه لم تُجْدِ نفعا، ولذلك لجأ الشاعر إلى صيغة أسلوبية، اختار لها الكلمات الـتي تحمـل معنى الفشل، والخيبة، والحزن .

---

[1] _____ القصيدة نفسها. ص 146

[2] _____ القصيدة نفسها، والصفحة نفسها.

وهكذا لاحظنا أن الأسلوب الّذي استخدمه الشابي في قصيدة (النبى المجهول) يناسب المعنى الّذي أراد أن يبرزه، كما أنّ الألفاظ التي استعملها تلائم هذا الأسلوب.

وأمّا النص الثاني فهو قصيدة (صلوات في هيكل الحبّ). وهي في الغزل. وعدد أبياتها ثمانية وستون بيتا. وهي من بحر (الخفيف) -أيضا-. وتفعيلاته : فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن، في الصدر، والعجز.

ومطلع القصيدة :

عذبة أنت كطفولة الأحلام كاللحن، كالصباح الجديد (1)

حرف الروى في هذه القصيدة هو (الدال)، ويتحكّم في كل أبيات القصيدة. فهي -إذن- تخضع لوحدتَيْ (البحر والقافية). والمُخَاطَبَة في هذه القصيدة هي الفتاة العذراء المقصودة، أو هي كل فتاة يتوسم فيها الشاعر الرقة، والعذوبة، والوداعة، والجمال. وقد اختار الشاعر، لرسم صورة هذه العذراء مايطابق هذه الأوصاف، من ألفاظ، وتراكيب، قائلا :

عذبة أنت كالطفولة، كالأحلام كاللحن، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك، كالليلة القمراء كالورد، كابتسام الوليد

وينتقل الشاعر، بعد أن حاول أن يجد لهذه العذراء مايشبهها، إلى وصفها وصفا مباشرا. ويتغيّر التركيب الأسلوبي -فجأة-. إذ يخاطبها، قائلا :

---

1 _____ الديوان. ص 179

يالها من وداعـــــة وجمـال وشبـــاب منعّـم أملـــود
يالها من طهارة، تبعث التقديـ س في مهجـة الشقـيّ العنيـد !
يالها من رقة يكاد يرف الـور د منها في الصخرة الجلمـود[1] !

إنّ لجوء الشاعر إلى استخدام ألفاظ بعينها (الطفولة، الأحلام، اللحن، الصباح، الليلة القمراء، السماء ... الخ)، وتراكيب معينة ، مكرّرة (يالها) يدل على أنه يعي موقع اللفظ، والتركيب في البيت الشعري، وأدائهما للمعنى. واستخدامه للألفاظ، والتراكيب السابقة يبيّنُ أنّ الشاعر يريد أن يرسم عذراءه في أبهى صورة. فهي، كما ورد في الأبيات السابقة الذكر، عذبة، وجميلة، ورقيقة، ورشيقة، ومشرقة الوجه، وحسنة الطلعة، ووديعة، وبريئة، وبهيّة. ولاشك في انّ هذه الأوصاف التي تحملها هذه الألفاظ لها وقع حسن في قلب كل عذراء، بل إنّ كل أنثى تحبّ أن تتصف بهذه الأوصاف، وتكره أن يخدش جمالَها أحدٌ من الناس، وبخاصة إذا كان شاعرا. وهذه غريزة أودعها الله في المرأة، ولاتتحقق أنوثتها إلاّ بها. والشاعر لايقف عند هذه الأوصاف التي يمكن أن تتصف بها كثير من العَذَارَى [2] ، وإنما يريد أن يسمو بها من العالم الأرضي إلى عالم علويّ، يفوق (عالم الخيال، والشعر، والفن)، (وفوق إدارك العقل). فيختار الكلمات التي تنزع إلى التجريد، قائلا :

أَنْتِ فوق الخيال، والشعر، والفن وفوق النُّهَى، وفوق الحدود [3]

---

[1] _____ صلوات في هيكل الحبّ. ص 179

[2] _____ جمع. مفرده : عذراء

[3] _____ صلوات في هيكل الحبّ. ص 181

فالألفاظ التي استخدمها الشاعر في البيت السابق، والتركيب الأسلوبي الّذي لجأ إليه يؤكد أنّه عجز عن إيجاد الألفاظ المناسبة التي يصف بها عذراءه، وصفا يناسب مكانتها في نفسه، وتصوره لها في مخيّلته، وهو يعترف <<أنّ اللغة لأصغر وأعجز من أن تحمل هذه الأمانة السماوية مهما بلغت من الرقيّ والتقدم لأنّها صبغة محدودة فانية والنفس الإنسانية فسيحة لا نهائية باقية ...>> [1]

فالنص السابق بَيَّنَ كيف ينظر الشابي إلى الدور الّذي تلعبه اللغة في التعبير عن الأحاسيس، والمشاعر الإنسانية. إذ يرى أنّ اللغة <<ستظل ... في حاجة إلى الخيال لأنه هو الكنز الأبدي الّذي يمدها بالحياة والقوة والشباب>> [2] . بل إنه يرى أنّ الخيال <<مهما أمدّها بالقوة والشباب فستبقى عاجزة عن استيفاء ما في النفس الإنسانية من عمق وسعة وضياء ...>> [3] .

ومهما كان الأمر فقد لاحظنا أنّ الشابي عاش في قصيدة (صلوات في هيكل الحبّ) تجربة عاطفية مع فتاة لاأثر لوجودها في العالم الأرضي، لأننا انتهينا من قراءة أبيات هذه القصيدة و لم نتمكن من تلمس صورتها، لأنّها موجودة في خياله -فقط-، ولكنّه استطاع، مع ذلك أن يرسم الجانب الروحي فيها، بفضل حسن اختياره للكلمات. رغم بساطة هذه الكلمات، فهي تحمل شحنات عاطفية، لأنها نابعة من قلب شاعر أحسّ بالمرأة إحساسا قويّا. وكان ينظر إليها <<كقطعة فنية من فنون السماء >> [4] .

---

[1] _____ أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب. ص 26

[2] _____ المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[3] _____ المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[4] _____ المرجع نفسه. ص 72

فظهر هذا الإحساس، بوضوح في أغلب قصائده الغزلية [1] . فلم يكن يختار من الألفاظ إلا مايعبّر عن تجربته الذاتية. فهو يختار الكلمة من رصيده اللغوي، ويضعها في الموضع المناسب فإذا هي طاقة دلالية مفعمة بالمعاني.

يقول خليفة محمد التليسي، متحدّثا عن أسلوب الشابي :

<<فهو أسلوب ينساب في عفوية، وبساطة، ورصانة، بساطة من أدرك موضع اللفظ، ومدى قوته التصوير والموسيقية>> [2]. ويقول في المقام نفسه :

<<قوة أسلوب الشابي ليست في ألفاظه رغم براعته في استخدامها، ورغم تروثه من الألفاظ اللونية والصوتية التي يستعملها في براعة الرسام والموسيقى العبقريّ، ولكنها في قوة إحساسه ... وقوة الإحساس هي كل شيئ في فنه وشاعريته. وهي التي تخلق ألفاظه، ومعانيه المتمردة والمتحررة في مواضع السخط، والتمرد، وهي التي تتدفق بالألفاظ اللينة الوديعة في مواضع اللين والضراعة >> [3].

وهذه الخصائص التي تميّز الألفاظ عند الشابي، و التي أشار إليها الكاتب في النصين السابقين، واشرنا إلى بعضها في السابق من خلال دراستنا لقصيدتي (النبى المجهول)، و(صلوات في هيكل الحبّ) هي الخصائص نفسها التي آثرها الرومانتيكيون [4] .وليس بِدْعًا أن تكون هذه الخصائصُ السِّمةَ البارزة

---

[1] _____ انظر،مثلا -القصائد الآتية :- أراك، 6 ص 184، و-أيتها الحالمة بين العواصف- ص220،- تحت الغصون - ص 241، و-ذكرى صباح- ص 226

[2] _____ الشابي وجبران. ص 101

[3] _____ المرجع نفسه. ص 102

[4] _____ انظر، فايز ترحيني، الرومانسية في الأدب ص ص 134-35

التي ميّزت التراكيب اللفظية في شعر الشابي. فقد كان الشابي رومانتيكيّا، في لغته الشعرية، وفي أسلوبه قبل أن يكون رومانتيكيا في فكره، وشعوره ـ مع مابين هذه المظاهر كلها، من ترابط، وتداخل ـ . وقد لاحظنا ملامح هذه الرومانتيكية[1] في فصول هذا البحث، الأربعة.

---

[1] والرومانتيكية هي المذهب الأدبي الذي ساد أوروبا في غضون القرن التاسع عشر. وقد جاء هذا المذهب كرد فعل على المذهب الكلاسيكي الذي سيطر على الأدب الأوروبي فترة طويلة من الزمن. من أهم خصائص الرومانتيكية : الذاتية، والثورة على القديم، والتغني بالطبيعة، والتأمل في الحياة والموت ... الخ.

للتوسع في معرفة الرومانتيكية، انظر ، محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية . ص ص 5 ـ 9 ، وص 169 ومابعدها، و ص 197 وما بعدها.

الخاتمة

لعلّ الدور الّذي قامت به الطبيعة في إبراز مناحي التفكير عند أبـي القاسـم الشابي يكون قد اتضح في هذا البحث.

وقد حاولت ألا أطمئنّ إلى نتيجة توصلت إليها إلا اعتمادا علـى الإحصـاء كركيزة أساسية في استنباط النتائج العامة، كما حاولت ألا أبـني حكمـا إلا علـى استنطاق النصوص الشعرية والخلوص منها إلى بعض الأفكار التي بـدت لي أقـرب إلى مقصد الشاعر. ورأيت أن أورد هـذه النتـائج، مرتّبـة، لتكويـن صـورة عامّـة، ومختصرة عمّا توصلت إليه من استنتاجات :

1 ـ كانت الطبيعة في مركز اهتمام الشابي بعد 1928. وتجلّى ذلك أساسا في طغيان الألفاظ التي تـدل علـى الطبيعـة، علـى مسـتوى العنـاوين، والنصـوص في ديـوان (أغاني الحياة)، بدءا من هذاالتاريخ.

2 ـ شهدت فكرة الطبيعية في الشعر العربي الحديث تحوّلا جوهريّا مع رواد الرابطة القلمية في المهاجر الأمريكية (جبران خليـل جـبران، ميخـائيل نعيمـة ، إيليا أبو ماضي...).

فبعد أن كان الشاعر يبرز المظاهر الخارجية للطبيعة. أصبحت الطبيعة مرتبطة بمعاناة الشاعر، وصار العيش في أحضانها يمثّل الحلم الخالد الّذي يراود هؤلاء الشعراء. ولاشك في أنّ الشابي قد تأثر بهذه الرؤية الجديدة. ويؤكد ذلك شعره وشهاداته فيما كتب من نثر.

3 - وفي المرحلة الموالية -الممتدة من 1928 إلى وفاة الشاعر سنة 1934- تبدّت الطبيعة في شعر الشابي من خلال نظرتين، هما :

النظرة الأولى :

وكانت الطبيعة فيها جنّة آمنة، وموطنا مقدّسا للسعادة، وحافزا على التأمل، والإبداع. فقي هذه الفترة التي اقترب فيها الشابي من الغاب، جادت قريحته بأجمل القصائد. وفي مقدمتها قصيدة (الغاب). واستطاع في هذه القصيدة أن يرسم الغاب في الصورة النموذجية التي رسمتها له مخيلته. وقد طغت على هذه النظرة عاطفة رومانتيكية جامحة. وقد تأكد للشابي من خلالها أنّ الطبيعة في الغاب هي المكان النموذجي المفضل للعزلة. فقد أظهرت له هذه العزلة زيف الحياة في المدينة، واكتشف أنّ الغاب هو خير العوالم المرئية.

النظرة الثانية :

وقد بدت فيها الطبيعة في الغاب الوسطَ المناسب الّذي يُعين الشابي على مقاومة المرض بما يوفّره من أسباب الراحة. إذ ظهر فيها الشابي مقاوِمًا للداء، صَبُورا على مواجهة آثاره، مقبلا على الحياة إلى حدّ العشق .

4 ـ ولَئِنْ تأكد للشابي أنّ الغاب هو (الموطن النموذجي للشاعر الرومانتيكي)، لأنه يصون شخصيته، ويحفظ وجوده، ويسمو بعواطفه، فإنه تأكد لـه -أيضا- أنّ المدينة هي الوسط الّذي يهدّد كيانه، ويشوّه شخصيته، ويكبح عواطفه الجياشة. فلم يحزن للخروج منها إلى الغاب. ولم يكن يرغب في العودة إليها.

5 ـ لقد انطلق الشابي من الطبيعة في الغاب لتحديد بعض مظاهر الواقع السياسي، والإجتماعي، والأدبي الّذي كانت تعيشه تونس، والعالم العربي، عموما. فصوّر هذا الواقع، انطلاقا ممّا تجسّده بعض عناصر الطبيعة.

6 ـ وتكشّف للشابي -أيضا- أن عالَمَيْ الطيور، والرعاة أقوى رابط يربطه بالغاب نفسه، لأنّهما يرمزان إلى كل مايعبّر عن الفطرة السليمة.

7 ـ إذا كان الشابي قد انطلق من الطبيعة المحلية في تونس، لرسم صورة الغاب، فإنّه أكسب الطبيعة في الغاب بعدا إنسانيا. ولكي يبيّن الشابي هذا البعد الإنسانيّ. فقد امتنع عن الإشارة إلى تلك المشاهد الطبيعية التي تعرّف إليها في تونس، امتناعا مطلقا.

8 ـ وقد أدركنا من خلال نظرة الشابي الرومانتيكية إلى الغاب البَوْنَ الشاسع بين تفكير المجتمع في تلك المرحلة من المراحل التاريخية في حياة تونس، والعالم العربي، وتمثّله حياة الناس في المدينة، وبين تفكير الشاعر الرمانتيكي، ويمثّله الشابي في ديوان (أغاني الحياة).

9 ـ ولعلّ أهم مايمكن أن يكون هذا البحث قد توصل إليه هو هذا التطابق الّذي يكاد يكون تامّا بين ماصرّح به الشابي في كتابه النثري (الخيال الشعري عند العرب)، عن الطبيعة، ومأأورده في شعره. وهذا يبيّن نظرة أبي القاسم الشابي، الثابتة إزاء الطبيعة. وترتبط هذه النظرة بالرغبة في الاقتناع بأنّ الطبيعة هي المرجع الأساسي الّذي يجلو رؤيته تجاه الحياة، والموت، والكون، والكائنات.

10 ـ و لم تقف نظرة الشابي إلى الطبيعة في هذه الحدود بل أصبحت الطبيعة قاموسا لغويّا لاينضب معينه. وقد تأكد هذا من خلال الدّور الّذي لعبته الطبيعة في إثراء القاموس الشعري، وتنويع الصور الفنية.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر

1 ـ الشابي، أبو القاسم، الديوان. تونس : الدار التونسية للنشر، النشرة الخامسة، 1980.

2 ـ (ـــــ، ـــــ) الخيال الشعري عند العرب. تونس : الدار التونسية للنشر. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ب.ت

3 ـ (ـــــ، ـــــ) مذكرات الشابي. تونس: الدار التونسية للنشر، النشرة الرابعة، 1983

4 ـ (ـــــ، ـــــ) رسائل الشابي. إعداد: محمد الحليوي ـ دار المغرب العربي، الطبعة الأولى، 1966

ثانيا : المراجع العربية

5 ـ إسماعيل،عز الدين، الشعر العربي المعاصر : قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية. بيروت: لبنان. دار العودة، الطبعة الثالثة، 1981.

6 ـ (ـــــ، ـــــ)، الفن والإنسان. بيروت : لبنان. دار القلم، الطبعة الأولى، 1974

7 ـ (ـــــ، ـــــ)، الشعر في إطار العصر الثوري. بيروت : لبنان. دار القلم، الطبعة الأولى، 1974

8 ـ (ـــــ، ـــــ)، دراسة وتقديم لـ : ديوان (أغاني الحياة) لأبي القاسم الشابي، بيروت: لبنان. دار العودة، 1972

9 ـ ابن جنى، أبو الفتح عثمان، الخصائص. تحقيق محمد على النجار، القاهرة. مطبعة دار الكتب المصرية، 1955.

10 ـ ابن عاشور، محمد الفاضل، الحركة الأدبية والفكرية في تونس. تونس : الدار التونسية للنشر، النشرة الثالثة، 1983.

11 ـ البطل، علي، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها. بيروت: لبنان، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الثانية، 1981

12 ـ جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة. تقديم وإشراف وتنسيق ميخائيل نعيمة، بيروت : لبنان، دار صادر ب.ت

13 ـ الجاحظ، أبو عثمان، البيان والتبيين. تحقيق وتقديم فوزي عطوى، بيروت : لبنان. دار صادر ب.ت

14 ـ هلال، غنيمي، الرومانتيكية. بيروت : لبنان، دار العودة، دار الثقافة، 1973.

15 ـ الهمّامي، الطاهر، كيف نعتبر الشابي مجدّدا.

تونس: الدار التونسية للنشر. الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1976.

16 ـ الواد، حسين، في مناهج الدراسات الأدبية. تونس: سراش للنشر، 1985

17 ـ الحاوي، إيليا، أبو القاسم الشابي : شاعر الحياة والموت. بيروت: لبنان، دار الكتاب اللبناني، 1972

18 ـ الحليوي، محمد، مع الشابي. سلسلة كتاب (البعث) تونس : الطبعة الأولى، 1955

19 ـ الطرابلسي، محمد الهادي، خصائص الأسلوب في الشوقيات تونس: المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية. منشورات الجامعة التونسية. عدد 20، 1981

20 ـ كرو، أبو القاسم، الشابي : حياته وشعره.

ليبيا ـ تونس : الدار العربية للكتاب، 1984

21 ـ (____، ____)، كفاح الشابي. سلسلة كتاب (البعث)، تونس، ب.ت

22 - (____، ____)، معد كتاب (دراسات عن الشابي).

ليبيا - تونس، الدار العربية للكتاب، 1984

23 - المبّرد، أبو العباس محمد بن يزيد (285هـ)، الكامل في اللغة والأدب. بيروت : دار الفكر للطباعة والتوزيع، ح 3، ب.ت

24 - المسدى، عبد السلام، قراءات. تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1981

25 - (____، ____)، الأسلوبية والأسلوب. ليبيا - تونس : الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، 1982

26 - (____، ____)، اللسانيات من خلال النصوص، تونس : الدار التونسية للنشر، النشرة الأولى، 1984

27 - مصايف، محمد، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي.

الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الثانية، 1984

28 - نوفل، سيد، شعر الطبيعة في الأدب العربي القاهرة : مكتبة الخانجي بمصر، 1945

29 - نعمات، أحمد فؤاد، أبو القاسم الشابي. سلسلة (شعب وشاعر)، ليبيا - تونس : الدار العربية للكتاب، الطبعة الثالثة، 1977.

30 - نعيمة، مخائيل، الغربال. بيروت : لبنان، مؤسسة نوفل، الطبعة الثانية عشرة، 1981

31 - سلوم، تامر، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي. اللاذقية : سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ب،ت

32 - السعدي، أبو زيّان، في الأدب التونسي المعاصر. تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1982

33 - عبّاس، إحسان، اتجاهات الشعر العربي المعاصر. سلسلة (عالم المعرفة)، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآدب، 1978

34 ـ (____، ____) إحسان عباس، فن الشعر. سلسلة (الفنون الأدبية) ، دار الثقافة، بيروت: لبنان الطبعة الثالثة، ب.ت

35 ـ فشوان، محمد سعيد، مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث، دار المعارف، ب.ت

36 ـ التليسي، محمد خليفة، الشابي وجبران. ليبيا ـ تونس: الدار العربية للكتاب، 1978

37 ـ ثريا، عبد الفتاح ملحس، القيم الروحية في الشعر العربي. قديمه وحديثه. بيروت : لبنان: دار الكتاب اللبناني، ب.ت

38 ـ ضيق، شوقي، في النقد الأدبي. القاهرة، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ب.ت

39 ـ غازي فريد، الشابي من خلال يومياته. تونس: الشركة التونسية للتوزيع الجزائر: الشركة الوطنية للكتاب، 1975

40 ـ غارسيا، إميليو غومز، الشعر الأندلسي. ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة للترجمة، 1969

ثالثا : دوريات ومجلات

1 ـ حوليات الجامعة التونسية، العدد 2، 1965، تونس.

2 ـ حوليات الجامعة التونسية، العدد 20، 1981، تونس

3 ـ الحياة الثقافية، العدد 18، 1981، تونس.

4 ـ الحياة الثقافية، العددان 36/37، 1985، تونس.

5 ـ مجلة الفكر، العدد 4، 1975، تونس.

6 ـ مجلة الآداب العربية (IBLA)، العدد 131، 1975

7 ـ مجلة دراسات عربية، العدد 6، 1983، بيروت

8 ـ مجلة دراسات عربية، العددان 6/7، 1988، بيروت

رابعا : المراجع باللغة الأجنبية

1 - Durant, Gilbert, les structures anthopologiques de l'imaginaire, collection, études supérieures, Bordas, Paris, N.D

2 - Jakobson, Roman, huit questions de poétique
Edition, Points, Paris, 1977

3 - Todorov, TSVETAN
Qu'est-ce que le Structuralisme ?
2 . poétique
Edition du Seuil, 1968

4 - Wiet, Gaston, introduction à la littérature arabe
G.P maissonneuse et larosse, Paris. N.D

فهرس المواضيع

المقدمة.....أ - و

التمهيد.....1 - 27

الفصل الأول : ينابيع آراء الشابي في الطبيعة.....28 - 48

- **أولا** : المصادر الثقافية.....28 - 45

أ - المصادر العربية.....28 - 37

ب - المصادر الأروبية.....37 - 45

- **ثانيا** : البيئة.....45 - 48

الفصل الثاني : الطبيعة الصامتة.....49 - 101

- الغاب.....49 - 53

- ظاهرة العزلة في الغاب.....53 - 54

- أسباب هذه العزلة.....54 - 101

الفصل الثالث : الطبيعة الحيّة.....102 - 125

ا - الحيوان.....102

- الطيور.....102 - 118

ب - الإنسان.....119

- الراعي.....119 - 125

الفصل الرابع : الصورة الفنية.....126 - 155

أولا - التشبيه.....127 - 129

أ - التشبيه البليغ.....129 - 134

ب - التشبيه المجمل.....134 - 138

ثانيا - الإستعارة.....139 - 147

ثالثا - الإنسجام بين اللفظ والمعنى.....147 - 155

- الخاتمة.....156 - 159

- المصادر والمراجع.....160 - 164

- **أولا** : المصادر.....160

- **ثانيا** : المراجع العربية.....160 - 163

- **ثالثا** : دوريات ومجلات.....163

- **رابعا** : المراجع باللغة الأجنبية.....164

- **فهرس المواضيع**.....165 - 166